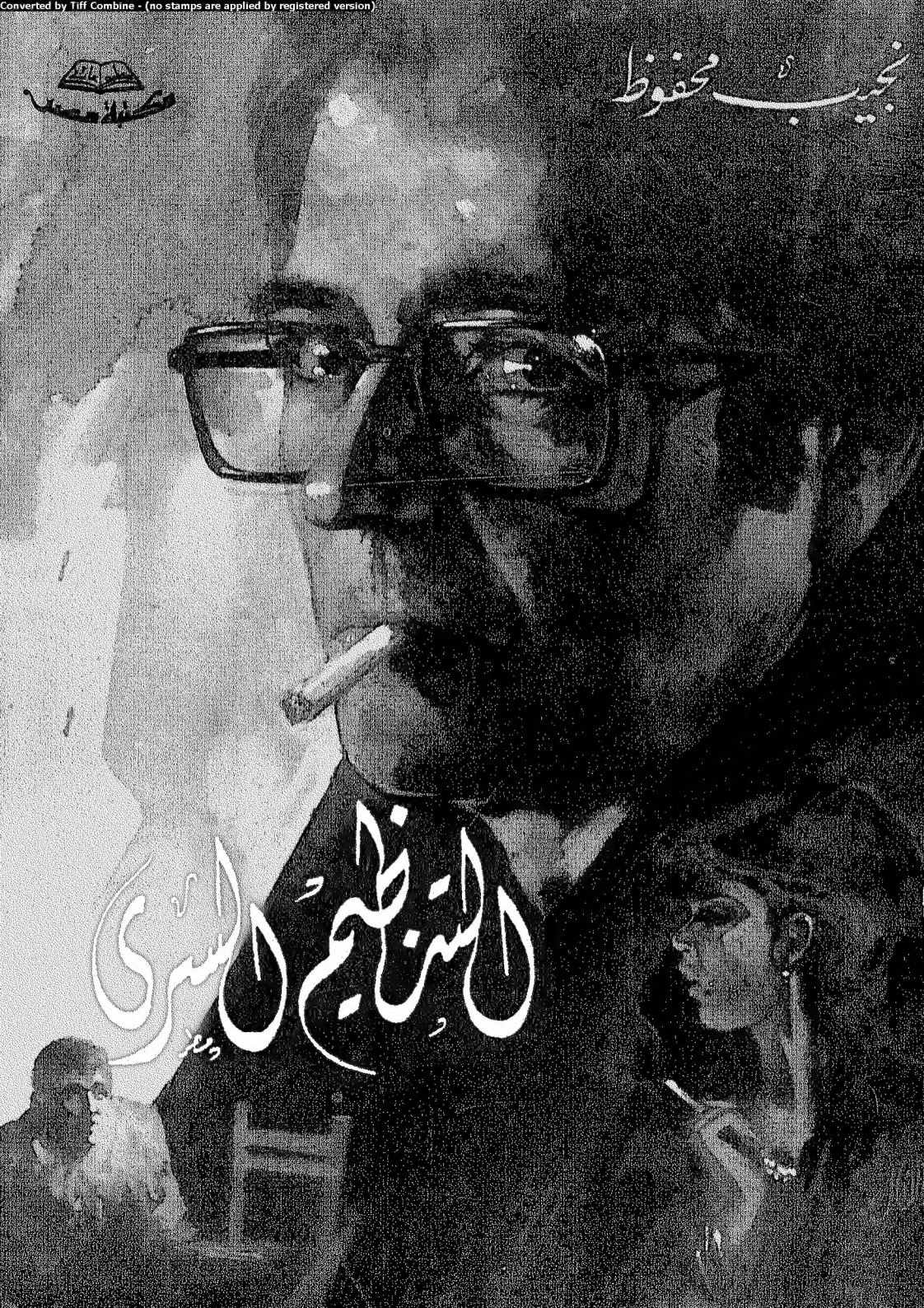




نجیب محفوظ



الليلة الأخيرة

مطبعة خان بئنة مهر

الشيخ السري

تأليف

نجيب محفوظ

الحائز على جائزة الدولة التقديرية

وجائزة نوبل العالمية للآداب لعام ١٩٨٨

دار مصر للطباعة

٣٧ شارع كامل صدقي

النَّظِيمُ السَّرِيُّ

فى ركن النادى الذى يجمعنا للسمر تنطلق الآراء كالمفرعات .
لا تترك كبيرة ولا صغيرة حتى تمزقها جدلا . وتتصارع المشروعات
ووسائل تنفيذها حتى تبح منا الأصوات إلا ذلك الصديق القديم .
لا يشترك فى همومنا الجدية برأى أو بلا أو بنعم . قد يثرثر فى الأمور العابرة
ولكنه عند الجد يلوذ بالصمت . يغيب عنا بنظرة شاردة . يتخذ من
هامش الحياة وطنا . على ذلك لم يخرج من قلوبنا لمودته الدافئة وجذوره
المتأصلة فى منابتنا . ويوما اتصل بى تليفونيا فى الديوان وقال لى :

— أود مقابلتك غدا صباحا فى محل توت عنخ آمون .
فوافقت من فورى ، وفى الموعد جلست أنتظره . وهلّ علىّ دون
تأخير ، فرحنا نشرب القهوة ونتبادل نظرات التمهيد ، وهو يرنو لىّ جادا
حتى خيل لىّ أنه استعار شخصية جديدة تماما . وقرب رأسه منى وقال :
— فكر قبل أن تتكلم ، فالكلمة هنا ارتباط أبدي .
فأثار اهتمامى لدرجة لم أتوقعها ، وحدجته بنظرة داعية للمزيد من
الإفصاح . قال :

— لم يكن مفر من هذا التحذير ، ثم أدخل فى الموضوع رأسا !
فقلت واهتمامى يتصاعد :
— ادخل .

— ٧ —

- فكور قبضته الضخمة وتساءل :
— آنست منك رغبة فى العمل ؟
فلمحت أول بصيص نور ، وسألته فى دهشة :
— كيف عرفت ذلك ؟
— من متابعتى للمناقشات !
فقلت بدهشة أكثر :
— حسبتك لا تنتبه إلى أقوالنا !
فابتسم ولم يربس فقلت :
— هات ما عندك .
فاعتمد على المائدة بمرفقيه وسألنى :
— أتعنى ما تقول حقا ؟
فقلت بصدق :
— كل كلمة ، كل كلمة !
— إذن فأنت ترغب فى العمل ؟
أدركت مغزى تحذيره ولكن وعائى كان طافحا بما فيه ، فقلت مندفعاً
إلى مصبرى :
— أجل .
— العمل — بخلاف الكلام — باهظ التكاليف .
فقلت بتحد :
— أدرك ذلك تماماً .
فقال ببطء :

— ٨ —

— الندم فيما بعد غير مجد .

— أعتقد ذلك .

— والتراجع يعنى الموت .

— طبعا .. طبعا .

فقال بارتياح :

— صدقنى حدسى .

فقلت وأنا أغلب انفعالاتى الداخلية .

— يا لك من داهية .

فقال كالمعتذر :

— هى الحياة .

فقلت بشىء من الحدة :

— أو هو الموت ، ليفعل الله ما يشاء .

— بداية طيبة .

فقلت بشوق :

— هات ما عندك .

فقال بسرعة :

— ما لدى قليل ، أقل مما نتصور ، أسرة مكونة منى وأربعة آخرين

ستعرفها مساء ، عدا ذلك لا أعرف إلا شخصا أتلقى منه الأوامر ..

— ولكن الأسرة وحيدة فى كل ، وعلى رأس الكل رئيس ، ماذا تعرف

عن ذلك ؟

فقال ببساطة :

— لا شيء ...

فتساءلت في حيرة :

— ونظل نعمل في الأسرة يحيط بنا الظلام ؟

— ربما ، وربما انتقلت إلى أسرة من مرتبة أعلى .

— ومتى أصل إلى مركز الرئيس الأعلى ؟

— علمى علمك ، المهم العمل والهدف ؟

وتفحصنى بنظرة ثابتة وقال :

— إنهم أدرى بما يحقق الأمان والنجاح .

ومرني نهار لم يمر لي مثله في حياتي . كمن يدلل لحمه ودمه وخلاياه وروحه . كمن يولد في دنيا جديدة ذات قوانين جديدة . كمن يودع الطمأنينة واللامبالاة ليستقبل المغامرة والموت . لم يبق لي من الماضي إلا الاسم وحتى هذا سرعان ما يتغير . وفي المساء انعقد أول اجتماع للأسرة في بيت صغير بمصر القديمة . كنا خمسة ، على رأسنا الصديق القديم المرموز إليه بـ « ا » . لم لا ؟ لقد أصبحنا رموزا لتحقيق أهداف . وجلس على رأس المائدة ينقل عينيه بيننا ، مكتسبا مهابة جديدة وتأثيرا نافذا . قال :

— أرحب بكم في أسرتنا التي جمعتنا على الخير ، هي التي أخرجتنا من العبودية وطهرتنا من عبادة الأصنام ، فلنجعل من الكمال زيتنا ومن الحب رابطتنا ومن الطاعة شعارنا ولنعمل في نطاق ما نعرف ولا نسأل عما لا نعرف — واحذروا الخطأ فلا خطأ يمر بلا عقاب .

وتتابعت الاجتماعات لمذاكرة الأهداف والوسائل ، أو لمعرفة الأجوبة

عن بعض أسئلة عاجلة ، ومناقشة الاقتراحات . وطيلة الوقت استحوذ رئيسنا المباشر « ا » على إعجابى بعقله الراجح وحده الصادق وخلقه المتين مع قوته الجسدية الخارقة كأنما هو بطل من أبطال المصارعة الحرة ، وإن ساءتنى جديته الصارمة التى تضمن بالابتسامه فضلا عن الدعابة . وعزيت نفسى قائلا إنه لولا ضرورة هذه السجايا لعمله ما اختاره الرئيس الأعلى للجماعة الذى يضع ولا شك الرجل المناسب فى المكان المناسب ، والذى تتسلل إلينا أوامره من مئاو المجهول عبر مندوبين مجهولين كذلك ، حتى إن « ا » نفسه لا يعرف من ذاك الجهاز المعقد إلا فردا واحدا . وقد رأيته يلوذ بالصمت فى أعقاب مناقشة ثقيلة جرت فى أحد الاجتماعات فقلت بعفوية :

— ألا يحسن أن يجتمع رؤساء الأسر بالرئيس الأعلى فى اجتماعات دورية لنطمئن على سير الأمور ؟

فاستيقظ من صمته راميا إياى بنظرة صلبة ثم قال :

— ارتكبت عدة أخطاء دفعة واحدة !

وراح يعدد على أصابعه قائلا :

— قطعت على تفكيرى ، تدخلت فيما لا يعنيك ، خالفت وصية من

الوصايا !

فهاأنى الأمر وقلت معذرا :

— إلى آسف يا سيدى .

— لا بد من العقاب ، وإنى أحكم عليك بالامتناع عن التدخين شهرا

كاملا ابتداء من هذه الساعة !

وصدمنى الحكم ولكنى لم أنكص عن تنفيذه — رغم ثقله — بوازع من ضميرى . على أننا كنا نشعر فى الوقت نفسه بأننا موضوعون تحت مراقبة خفية يمارسها جهازنا الغامض ، بالإضافة إلى مطاردة الشرطة المستمرة . هذا ما تطوعنا للخدمة فيه بدافع تلك الرغبة الجنونية المقدسة فى تغيير الكون . حسبنا أن نؤمن بأننا ضمن الصفوة المختارة بدقة رسم خطوطها ذلك الرئيس الأعلى الذى صار — هو وجهازه — أسطورة يتحدث عنها الناس فى كل مكان ، وتنشط دوائر الأمن العام إلى اكتشافها بكل سبيل انطلاقاً من حوادثها المتكررة ومنشوراتها السرية المثيرة . وما أدرى يوماً ونحن مجتمعون حول المائدة إلا و « ا » ينظر ويسأل :

— أين القلم الرصاص الذى وجدته أمامك فى الجلسة السابقة ؟

فقلت ببراءة :

— لعلى أخذته معى .

فسأل ببرود :

— من أين علمت أنه وزع للامتلاك ؟

فقلت فى استياء :

— سأرده فى المرة القادمة أو أبتاع بديلاً عنه .

فقال ببرود أشد :

— نحن نعتبر ذلك نوعاً من السرقة !

فقلت بغضب :

— لقد بعنا الحياة نفسها دون مقابل فكيف نتهم بسرقة قلم رصاص ؟

فقال بهدوء هو أشد من الحدة :

— لا تمن علينا بالتضحية ، فإنك لا تضحى من أجلنا ولكننا نضحى

جميعا من أجل الهدف وقد حكمت عليك بألا تستعمل يدك اليسرى لمدة شهر !

ركبني هم ثقيل فذهبت إلى مطعم « فلسطين » بالسكة الجديدة لتناول العشاء . وجلست إلى أقرب مائدة إلى فتاة وحيدة . لاحظت رغم همي أنها لم تطلب شيئا ولم يقترب منها الجرسون . ولاحظت أيضا أنها تنظر نحوي بجرأة وثبات لا يصدران إلا عن امرأة هوى . على جمال كانت ولكن منظرها أوحى بالفقر ، بل والجوع أيضا . قالت لي عيناها « ادعوني للعشاء من فضلك » . ورق قلبي لها فابتسمت وسرعان ما ردت الابتسامة بأخرى مبتذلة . قلت إنها ما زالت تشق طريقها الوعرة ، وأشارت إلى المقعد الخالي أمامي فانتقلت إليه دون تردد . تناولنا عشاء من المكرونة والخبز الجاف فالتهمت طعامها بنهم وبلا حياء . حل الارتياح مكان التوتر في وجهها ، وتبادلنا الابتسام دون تعارف ، ثم سألتها لأبدد الصمت :

— من هنا ؟

فقالت بنبرة ذات معنى .

— مسكني فوق المطعم .

لم تكن في رأسي خطة نهائية فنظرت في الساعة فسألتني :

— نقوم ؟

فاستسلمت بلا حماس وبلا فتور فتأبطت ذراعي ومضت بي نحو مدخل المبنى في عطفة خلفية . لست من مدمني ذلك ولا من الهواة ولكنها تعرض لعازب . وكانت رقيقة وثرثرة وغير مخنكة فدار حديثها حول ضجيج العاصمة . وسألتني :

— ١٣ —

— ما لديك اليسرى ؟

فقلت بامتعاض : روماتيزم خفيف .

فقال مجاملة :

— ولكنك في عز الشباب .

فقلت بضيق :

— أمراض عصرنا لا تفرق بين شيخ وشاب .

وغادرتها وهي تقول :

— لتكن أولى الزيارات لا آخرها ..

وصادفتني متاعب متلاحقة في البيت والديوان لعدم استعمال يدي اليسرى بالإضافة إلى سوء المزاج الناتج عن الامتناع عن التدخين . وتمخض اجتماع الأسرة التالي عن مكدرات جديدة لم تكن في الحسبان ، إذ التفت « أ » نحوي قائلاً :

— ما زلت ماضياً في طريق الضلال !

فنظرت إليه مبهوتاً فقال :

— الزنا بعد السرقة .

فالتفت وجنتاى وغضضت بصرى ، فقال :

— كأنك لا تدرك خطورة زلتك !؟

فقلت باستماتة :

— هفوة شخصية لا تمس سلوكي العام .

— هراء ، المرأة أشد خطورة من الشرطة .

فقلت مدافعا :

— الزواج عسير جدا في هذه الأيام .

فقال ببرود :

— فى الهدف ما يغنى ويسلى عن سواء ..

وواصل عقب صمت قصير :

— إنك كثير الجدل فمتى تتعلم الطاعة ؟

وفكر قليلا ثم قال :

— مراعاة لظروفك سأكتفى بتغريمك مائة جنيه تؤديها على أقساط !
وجدتني فى مأزق . كدت أندم على فكرة التطوع نفسها ولكن لم
يغب عني أن التراجع الآن يعنى الموت . وتعزيز بما أحرز من نجاح حين
عرض الآراء وتنفيذ ما أكلف به من أعمال . وتحيلت رئيسنا الأعلى —
قياسا على « ١ » — فى صورة عملاقة جبارة جديدة حقا بالإجلال
والخوف . ومازج شوقى إلى معرفته رغبة فى البقاء بعيدا عن بابه . ولم
أخطئ بعد ذلك ، وتقدمت فى الدرس والتدريب تقدما محمودا سمعت من
أجله الثناء تلو الثناء ، فتلاشى الحرج وذكرى العقوبات . وفى ختام
اجتماع هام للأسرة ، استبقانى « ١ » ، ووضع أمامى مظروفا مغلقا وقال :
— تسافر إلى (...) وتقابل (...) الكاتب بالمحكمة وتسلمه
الرسالة خفية وتعمل بما يشير به عليك .

كنت تدربت تماما على وسائل معرفة المكان ومواعيد القطارات
والاتصالات الخفية . وشرعت فى العمل خطوة بخطوة حتى سلمت
الرسالة للرجل . وأشار على بالنزول فى فندق بالبلدة والانتظار . وفى
الصباح جاءتنى سيارة فورد قديمة ، ودغانى السائق إلى الجلوس إلى جانبه
وانطلق بها بلا تعارف أو كلام . وفى وسط الطريق قال :
— فى الصندوق الخلفى حقيبة جلدية .

ووقف على مبعدة من البيت الذى تجتمع فيه الأسرة بمصر القديمة .
 حملت الحقيقة رغم ثقلها وسرت بها نحو البيت . غالبت توترى لدقة
 الموقف وخطورته ، ثم وضعتها على المائدة أمام « ا » ، وجلست مزهوا
 وأنا أشعر بأننى هجرت دنيا الناس إلى الأبد . وفتح « ا » الحقيقة فحال
 غطاؤها بينى وبين رؤية ما بداخلها . ودام فحصه ربع ساعة ثم أغلق
 الحقيقة وقال :

— أمضيت وقتا فى المقهى ناسيا أن الغريب يلفت الأنظار فى البلدان
 الصغيرة .

فخفق قلبى متوقعا عقوبة جديدة ولكنه قال :

— ولكنك عبرت البحر بسلام !

فشاع فى نفسى الرضا وامتألت ثقة وإحساسا بالنصر ، وقمت
 بأعمال قيمة على مدى غير قصير ، فى وثبات متلاحقة حققت لى مركزا
 لا بأس به . واستدعانى « ا » ذات يوم فوجدته وحده بحجرة الاجتماع .
 أجلسنى فى أقرب مقعد إليه وقال لى :

— تقرر أن تفارقنا إلى أسرة جديدة .

نظرت إليه مليا وأنا أغالب انفعالاتى ثم سألته فى حذر :

— أسمح لى بسؤال أو أكثر ؟

فحنى رأسه بالإيجاب فسألته :

— ماذا يعنى أسرة جديدة ؟

— أسرة الزميل الوحيد الذى أعرفه خارج أسرتنا ويدعى « ب » ،

وهى وحدة ضمن وحدات متصاعدة لا فكرة لى عن عددها تنتهى بالجهاز
 الأعلى .

فداخلنى ارتياح وسألت :

— وما نوع العمل فى الأسرة الجديدة ؟

— لا أدرى !

— من الذى رشحنى للأسرة الجديدة ؟

فأجاب ببساطة :

— عملى .

وقام آخذاً بيدى إلى حجرة صغيرة داخلية وهو يقول :

— دعنى أقدمك إلى رئيسك الجديد .

وجدناه جالسا ينتظر . ومن عجب أن طالعنى بصورة مناقضة تماما لتخيلى

له . تصورته يفوق « ا » فى القوة والعملة فإذا بى حىال شاب يكبرنى بأعوام

جميل الحيا رقيق الحاشية يأسر الناظر إليه بلطفه وعذوبته . كيف يرأس هذا

الشاب أسرة هى أقرب فى موقعها من الرئيس الأعلى عليها مهام — ولا

شك — تجاوزها فى الشدة والعنف ١٢ . وكيف يضع رئيسنا الأعلى ثقته فى

شخصين تقطع الدلائل بتناقضهما الكامل ؟ . ترى متى يتاح لى مقابلة ذلك

الرئيس العجيب الذى أقض مضاجع الشرطة وأثار الرأى العام لدرجة الهوس؟ .

وتبادلت مع « ب » كلمات رقيقة فاستحوذ على حبى من اللحظات الأولى .

ومضى لى فى سيارته الصغيرة ١٢٨ إلى حديقة «الوردة البيضاء» بطريق سقارة .

سأله قبل أن ندخل:

— أعندك فكرة عن هذه الحديقة ؟

فدخل مبتسما وهو يتأبط ذراعى . وسرعان ما احتوتنا مقصورة

تكتنفها الخضرة والأزهار وتحبو فوقها أشعة الشمس فى مطلع شتاء

لطيف . وجدت الأسرة الجديدة بكامل عددها وهى مكونة مثل أسرتى

— ١٧ —

الأولى من خمس ولكنى عجبت لاختياره مكان الاجتماع فى حديقة سيئة السمعة لا يردّها عادة إلا طلاب الحب المحرم . وقلت لعله داهية ذات قشرة ذهبية أو ماء تحت تين . وشربنا الشاي بسرور وارتياح وهو يقول : — أهلا بكم فى أسرتنا الجديدة .

وتفكر قليلا ثم واصل :

— لكل منكم سابقة المحمودة المتسمة بالشدة والخطورة ، ونحن الآن بصدد عمل جديد ذى أسلوب آخر ، لا تنكر للماضى ولكننا نستكمّله بأسلوب جديد كل الجدة ، وإلا ما دعت الضرورة إلى إنشاء أسرة جديدة ، مستهدفين فى النهاية غاية واحدة ، وإياكم والاستهانة بعملكم الجديد ذى المظهر الخادع ، فمثلكم مثل زارع يرمى فى الأرض ببذرة لا تكاد ترى ، ولكنها ستثمر ذات يوم شجرة باسقة يلوذ بظلها المعذبون فى الأرض ..

وصمت قليلا ثم قال :

— كانت مهمتكم السابقة التصدى للوجه القبيح والانحلال على قبحه باللكمات الصادقة ، أما مهمتكم الجديدة فهى التغنى بالوجه الجميل المنشود ، حلم اليوم وحقيقة الغد ، ولكن أى أغان وأى ألحان ؟ .. أغانى جديدة وألحان جديدة .

التمع فى الأعين حب استطلاع وهاج فقال :

— سأكون المؤلف والملحن وستكونون المغنين وسأضع فى كل حنجرة اللحن الذى يناسبها !

وضح فى الوجوه ما يشبه الدهول فقال :

— المهمة ظاهرها الترفيه ولكنها تنطوى على جدية فائقة ويحف بها

— ١٨ —

- الخطر من كل جانب .. فليوطن كل نفسه على التضحية .
وقلب عينيه في وجوهنا متسائلا :
— هل من أسئلة ؟
وفي الحال سألته :
— أنعتبر حديثك من المجاز والرمز ؟
فأجاب ببساطة :
— بل إنه واقع وحقيقة ...
— هل حقا تحفظنا ألعانا لنشدها ؟
— بكل تأكيد .
— لكننا لسنا مغنين .
— كل فرد يستطيع أن يغنى فى حقيقة عامة فيسمعه من يشاء أن يسمع .
— من ناحيتى لا أملك أى موهبة غنائية .
— لا يهم . العبرة باللعن أما الأغنية فأغنية حب من لون جديد !
— قد يعتبر الجمهور غناءنا تكديرا للصقوه .
— ربما .
— وقد يسخر منا .
— ربما .
— وقد يعتدى علينا .
— ربما ، ولذلك لا بد من توطين النفس على التضحية ..
فقال زميل منفعلا :
— عملنا السابق أخف رعم عنه .

— ١٩ —

فأجاب باسم :

— محتمل جدا .

وترددت قليلا ثم قلت :

— لدى سؤال وأخاف العقاب .

فقال « ب » بسرعة :

— لا موضع للعقاب في قاموسنا .

فسألته :

— وما جدوى الأغاني والألحان والغناء ؟

فقال بهدوء :

— أكبر مما تتخيل ..

فسألت مندفعاً بشجاعة جديدة :

— وهل وافق رئيسنا الأعلى على عمل أسرتنا ؟

فقال باسم :

— لسنا إلا أدوات تنفيذ ..

ثم بنبرة حماسية :

— اسمحوا لي أن أدعوكم إلى عشاء من الشواء والنيبذ لتتعاهد على الحب

والعمل ونحن في أطيب حال ..

وشرعنا في الحال في الحفظ والتدريب ، ثم في العمل . وتعرضت لخرج ومتاعب لا نهاية لها . آمنت بأن عملي الجديد أشق من القديم رغم إحساسى بأننى أعمل في جوقة موسيقية تحت إشراف شاعر وملحن في آن . وعجبت لشأنه ، وعجبت أكثر لشأن رئيسنا الأعلى الذى يستعمل كل هذه الحيل المتناقضة والأساليب المتضاربة لتحقيق أهدافه . واستقرت

في وجداني عبارة « ب » : « لا موضع للعقاب في قاموسنا » ، فشجعني ذلك على التخفيف من توتر أعصابي بزيارة جديدة لفتاة مطعم فلسطين بعد انقطاع ، رغم ما سمعت من إدانة لذلك ، وتحذير من المرأة التي هي أشد خطرا من الشرطة ، ورغم علمي المسبق بأن سلوكي لن يخفى عن رئيسي كما لا يخفى سلوك أحد من أفراد الجهاز بعامة . وسرت الفتاة بزيارتي سرورا أنساني قلقي ووساوسني ، وهداني إلى اكتشاف جانب رقيق في قلبها لا يوجد عادة في حومة الاحتراف . وقال لي « ب » في أول اجتماع تلا مغامرتي :

— لا اعتراض لي على الحب .

فاشتعل وجهي بالحياء فقال :

— ولكنه دون ما رباط عبء على نقاء القلب ..

فقطبت إلى ما يشير إليه وقلت باستنكار :

— ولكن ..

فقاطعني :

— لا تستشهد بمأثورات حياة قد أعلنت الحرب عليها !

ثم تحول إلى موضوع الاجتماع كأنما قال قولته الأخيرة في المسألة . وجاء زواجي من الفتاة مغامرة لا تقل في خطورتها عن كبرى مغامراتي التي قمت بها وأنا عضو في أسرة « ا » وفي ليلة الزفاف أتى « ب » دون دعوة وأهداني قارورة من أفخر أنواع النبيذ الأحمر . وهمس في أذني وأنا معه آخر الليل ..

— صن سرك في أعماق قلبك وحده .

وواصلت حياتي ما بين الديوان والحدايق العامة وعش الزوجية فوق

— ٢١ —

مطعم فلسطين . وكان الاجتماع لم يسبق بمثله إذ تخلف عنه لأول مرة أحد الزملاء . وأشار « ب » إلى المقعد الخالي وقال بأسى :
— ألقى القبض عليه .

فذهلت أنفسنا وتغيرت ألواننا فقال :
— لعله تهاون في الكتمان .

فقال زميل :

— قد يدفعه التعذيب إلى الاعتراف بما يهدد أمن الأسرة .
فقال :

— من أجل ذلك سنؤجل اجتماعاتنا إلى أجل غير مسمى ، وسنختار مكانا آخر . على أنى متيقن أنه سيتحدى الموت قبل أن يعترف !
رجعت إلى وحدتي الأولى . وانسربت إلى نفسي سموم الهواجس والخارف فتوقعت أن تصل إلى عنقي القبضة الحديدية في أى وقت من ليل أو نهار . أجل كانت حياة كل زميل مجهولة تماما من بقية الزملاء خارج نطاق العمل المشترك ، ولكن أى ضمان ثمة لذلك ؟ . كانت أيام خوف وضياع . وصادفنى يوما أحد الزملاء في ميدان العتبة . صافحنى خارقا تقاليدنا الثابتة وقال :

— معذرة ، ثمة أخبار غاية في الخطورة .

تولاني رعب من قبل أن يفصح واستوضحته بعينى دون لسانى فقال :
— قبضوا على رئيسنا « ب » نفسه !

فهتفت بفزع :

— من أين لك هذا ؟

— ٢٢ —

قال بغموض :

— شائعات تطايرت في مكان عملي ، والشائعة في مكان عملي تعتبر

خبرا !

تجههم وجهه حتى الظلمة وقال :

— ويقال إنه قتل وهو يستجوب !

هتفت :

— يا للفضاعة ..

فقال :

— وثمة همس عن أن زميلنا المقبوض عليه أولا قد باع نفسه ودل على

الرجل ..

فقلت باضطراب :

— يجب أن نهرب .

فقال بحنق :

— لا خوف من ناحيته بعد فقد وجد في السجن ميتا بالسم والتحقيق

جار مع الجميع ..

وتابعت الصحف ولكنها لم تشر من قريب أو بعيد إلى جماعتنا . تركنا

في الظلام ، وانقطعت الصلة بيننا وبين الجهاز ، وانطويت على سري دون

شريك أحاوره أو أقمس عنده العزاء . واحتوتني غربة وسط عالم معاد لا

أدرى متى يتشلىني اليأس من العذاب . واستدعاني رئيسي المباشر في

الديوان وسألني :

— مالك ؟ ، لست كعادتك ، أهر الزواج ؟

فادعيت المرض فقال :

— قم في إجازة تجنباً لمزيد من الأخطاء .

هربت من الديوان لأسقط بكليتي في قبضة نفسى . أما زوجتى فأرادت أن تخفف عني بعض ما لمست من اضطرابى فقالت :

— ستكون أبا يا حبيبى .

فتظاهرت بسرور لم أعد أتذكر طعمه أو رائحته . واتجه فكرى إلى رئيس الجهاز الأعلى ، فتساءلت عما يدبر لرتق الفتق الذى مزق جهازه ، كيف يصل ما انقطع ، وهل يعلم بما نعانى فى ضياعنا ، أو يفكر فى التخلص منا حفظاً لأمن جماعته كما تخلص من زميلنا الخائن ١٩ . وانطوت الإجازة ، ورجعت إلى عملى ، وكلما مر يوم دون مفاجأة أخلدت إلى شئ من الطمأنينة ، حتى بت أعتقد أنى راجع حتماً إلى تفاهة الحياة ومرارتها اليومية . كفرد من ملائمتها الذين يتعذبون ويتشكون ويتصبرون وينتظرون دون جدوى . وقلت لنفسى على سبيل التعزى لعل التفاهة فى النهاية أرحم من الخوف والضياع . وتعاقبت الأشهر حتى خرج وليدى الأول إلى الوجود ، ومضيت أنهمك فى مجريات الحياة اليومية . وذات صباح وعقب أبوق بشهر . دق جرس الباب فذهبت زوجتى لترى الطارق ثم عادت لتقول ، بدهشة :

بـ يقول إنه مندوب شركة الشرق للتأمين !

فذهبت بنفسى إلى الباب وسألته عما يريد فقال بصوت عريض ملئ :

— اسمح لى بخمس دقائق ، إنى قادم من أجل ابنك ربنا يحفظه بعين

رعايته ..

وجلسنا في حجرة الاستقبال متواجهين . كان متوسط الطول متين
البنيان أنيق المظهر ، بشوش الوجه كما يجدر بتاجر ، قوى النظرات ، بيده
حقيبة وجاءت زوجتي مدفوعة بحب الاستطلاع فانتظر حتى جلست
وقال :

— جئت يوم الجمعة لأضمن لقاءك ، ومهمتى هي صميم عملي فنحن
نتابع المواليذ ونزور الأسر لإقناع الآباء بالتأمين على الأبناء ، ويا بحث من
يرى غده في يومه ..

— أبكلفنا ذلك ما لا نطبق ؟

فأجاب بنبرة مشجعة :

— التأمين أصلا للذين لا يملكون ، وهو درجات ولكل درجته ، وإن

بعد العسر يسرا ..

وفتح حقيبته فتناول كراسة أعطائها وهو يقول :

— إنها حاوية لكافة الأنواع وستجد فيها ما يناسبك إن شاء الله .

ونفض قائما فاصطحبته إلى الباب مودعا . ودس في يدي ورقة ،

وصافحنى وهو يهمس :

— لا علاقة لى بشركة التأمين ، اقرأ ما فى الورقة بعيدا عن عيني

زوجتك ، ستجد فيها المكان والوقت فلا تتأخر .

قال ذاك وذهب . وددت لو بقى دقيقة أخرى ليلى ريقى الجاف .

هكذا بعثت فجأة واشتعلت روحى بالنار المقدسة من جديد . رجعت إلى

الحياة ومعاناة الإحساس المضنى بحمل الأمانة .

— ٢٥ —

وفي الموعد كنت في بيت عتيق بالقلعة ، يقع في بقعة فاصلة بين العمران من ناحية وبين مدينة الأموات من ناحية أخرى . وكالعادة كانت الأسرة الجديدة مكونة من خمسة يرأسها « ج » (مندوب شركة الشرق) ، أما الأربعة الآخرون فكان اثنان منهما — أنا أحدهما — من أسرة المرحوم « ب » ، وواحد زاملته في أسرة « ا » والرابع جديد لم تقع عليه عيناي من قبل . قال « ج » :

— مضى ما يقارب العام دون اتصال .
فقلت من فوزى :

— عام محنة وعذاب .

أما زميلي من أسرة « ب » فتساءل :

— هل عادت أسرتنا القديمة ، أسرة « ب » ، برياسة جديدة ؟

فقال « ج » :

— أسرة « ب » موجودة برياسة جديدة أما هذه الأسرة فهي أسرة جديدة بالنسبة لكم .

وتنحني ثم واصل حديثه :

— لم يمض العام هدرا ، كلا ، ولكنه مضى في التحرى والمتابعة والمراقبة ، كان على رئيسنا الأعلى — وهذا محض ظن مني — أن يطمئن إليكم وأن يسير غور الشرطة وعيونها الشرهة ، وأعتقد أني تلقيت أوامره في الوقت المناسب ..

وقلت لنفسى إن هذا الرجل يعنى ما يقول وأنه قادر على ملء الفراغ بالثقة ، وسرعان ما أحبيته أما هو فقال :

— أهلا بكم في أسرتم الجديدة ، هى الأخيرة أيضا ، يليها مباشرة

الجهاز الأعلى ، ولا أخفى عنكم أنى أنلقى التوجيهات من السكرتير العام نقلا عن الرئيس الأعلى حفظه الله ورعاه .

وأشعل سيجارة ، آذنا بإشارة لنا بالتدخين لمن شاء ، ثم قال :
— ولعلكم تتساءلون عن أسلوب العمل ؛ أول ما أقول إنه يقوم بصفة مبدئية على القواعد المرعية فى الأسرتين السابقتين ، فلا يجوز أن تهمل تجربة ناجحة أثبتت جدواها ، فلا تنسوا ما تدرستم به فى أسرتكم الأولى وما تدرستم به فى أسرتكم الثانية ، بالإضافة إلى ما سيجد ، ولا تنسوا أن جميع الأسر وحدات فى أسرة كبيرة واحدة ذات هدف واحد ورئيس واحد .
وقلب عينيه فى وجوهنا ثم واصل حديثه :

— وفى كل أسرة طالبوكم بحب زملائكم فيها ، وهو أول مطلب أطالبكم به فى نطاق أسرتكم ، ولكنكم مطالبون إلى ذلك بحب الجميع بلا تفرقة وفاء بحق المنبع الذى منه نهلتكم ، ولو لم يبادلوا حبكم بحب مثله لجهلهم بوجود أسرتكم !
وتهمل قليلا ثم قال :

— وعملنا عجب ، ومحير إلا لمن يعقل . يحتاج إلى الصبر كما يحتاج إلى التهور ، إلى التضحية بالمال والروح والحرص على المال والروح ، إلى الاعتماد على النفس والتوكل على الله ، إلى الزهد فى كل شئ ، والشكر على كل طيب ، إلى حب الحياة وحب الموت !
وانتظر حتى نفذت كلماته إلى أعماقنا وراح يقول :

— وقد ألفتكم الطاعة فيما مسمى ، وما زلتم مطالبين بها هنا فيما أنقل إليكم من أوامر . ولكنكم مطالبون بالإبداع فيما عدا ذلك ، لراحة ولا كسل ولا رجوع إلى إلا فيما أبلغت من أوامر صريحة ، وقد تدرستم بكافة

— ٢٧ —

الأساليب ، ولكم أن تضيفوا إليها ما تقتنعون بصوابه ، ومصيركم رهن
بفطنتكم ..

ولأول مرة أشعر بأن المهمة أشق مما تصورت . فإذا به يقول :
— وما العاقبة ؟ .. قد تكون الشرطة والعياذ بالله ، أو ميتة بطولية ،
أو الترقى إلى مكتب الرياسة !

ولم أتمالك أن رفعت إصبعي فأذن لي بالكلام فقلت :
— تصورت أنني كلما اقتربت من الرياسة أن تجب الطاعة أكثر ويقل
الاعتماد على النفس ..
فقال بثقة :

— تصور خاطيء فرئيسنا حر ، وما كانت ثورته إلا من أجل الحرية ..
فتماديت في السؤال قائلا :
— لم لا يسمح لنا القائد لنستمد منه الشجاعة والقوة ؟
فأجاب :

— لا سبيل إلى ذلك إلا بالعمل . إلى ذلك فهو يتابع العمل بكل
يقظة .

فتماديت أكثر قائلا :

— رغم ذلك فقد ترك « ب » للجلاذيه يقتلونه !
فرنا إلى طويلا حتى عصرني الندم ثم قال بصوت مهموس :
— لا أحد يملك أن يقطع برأى في مصير زميلنا العزيز ..
وتبادلنا نظرات هاتفة جياشة ولكنه قال بعجلة وحزم :
— آن لنا أن نرفع الجلسة التي ما قصدت بها إلا التعارف ، وإلى
اللقاء ..

— ٢٨ —

وتعاقبت الاجتماعات ، وتتابعت الأوامر ، وكثرت الاجتهادات ،
وأنجزنا أعمالا كبارا ، حتى لاح النصر في الأفق مثل إشراقة الفجر ..
وسقط كثيرون متلفعين بالبطولة فزادنا ذلك استبسالا وإصرارا ، وجعل
رئيسنا « ج » يقول لنا كلما اجتمعنا :

— حقا إنكم لرجال !

أو يقول :

— سيرحل الشر عما قليل فقد يثس من الأرض .

وكان ذا حلم يشجع على المناقشة فقلت له ذات مرة :

— أما آن لى أن ألقى الرئيس ؟

فقطب فى غير غضب وسألنى فى عتاب :

— أيداخلك شك فى عدالة تقديرى ؟

فقلت بسرعة وصدق :

— معاذ الله يا سيدى .

— ألا يكفيك ما أنت فى شغل به ؟

فقلت بتوسل :

— أصبحت يا سيدى وكأئنى من مجانين العشق .

فضحك ضحكة خفيفة وقال :

— من يدرى ؟ لعلك رأيته وأنت لا تدري .

فرمقته بذهول غير مصدق فقال :

— إنه — على مدى علمى — لا يعيش فى برج عاجى ، ولكنه يمارس

حياته بين الناس ، وربما غشى الأماكن التى تجوبها للعمل أو الراحة ..

فقلت منكرا :

— لو لمحتة للفت، نظرى بقوة شخصيته .

فقال باسم :

— ما أكثر الأتياء الجديدة يجذب الأنظار لولا انغماسنا فى الأمور العابرة ..

رددت قوله على مسمع قلبى طويلا ، وكدت أشغل به عن كل شئ ،
لولا نداء العمل الذى لا يكف عن الصراخ .

* * *

وتواصل النجاح واقترب الشروق حتى انفجر رأى لم يقنع بكافة الإنجازات التى تمت وتلهف على النصر النهائى . من أى أسرة انبثق ذلك الرأى ؟ أم هل انبثق فى الأسر الثلاث فى وقت واحد ؟ . بدأ بدعوة إلى عقد مؤتمر عام تحت الإشراف المباشر للرئيس الأعلى لإعادة النظر فى الخطة من أولها إلى آخرها . ولما لم تلق الدعوة القبول وقع ما يمكن اعتباره التمرد الأول فى الجماعة . فقد اجتمع ممثلون عن الأسر ، وتسابقوا فى عرض تصوراتهم الجديدة . واحتدم النقاش حتى انتهى بكل فريق إلى التحيز إلى أسرته وإيثار أسلوبها على جميع الأساليب والمناذاة العامة بالانضواء تحت لوائها . وزلت القدم زلة أخرى فراح كل فريق يسخر من أساليب الفرق الأخرى . وارتفعت موجة الغضب إلى تبادل السباب والشتائم ، ثم انزلوا إلى الاشتباك بالأيدى والأرجل ، وتمزقت الوحدة ، وانعزل الناس الطيبون وهم يذرفون الدمع ، متوقعين أن تنقض الشرطة فى الوقت المناسب فتقوض البناء من أساسه . ولم أصدق ما أرى وما أسمع ، وقطع الأسى قلبى ، وهرعت إلى رب أسرتى وقلت له :

— ما حدث لا يصدق .

— ٣٠ —

فقال بحزن :

— هذه الأمور تحدث .

فتساءلت بحسرة :

— أبعد مشاركة النصر نقع في اليأس ؟

فهتف بحدة :

— لا تلمس اليأس بلسانك !

— أما يزال لديك أمل ؟

فقال بنبرة قوية واضحة :

— انتظر ، كلا ، لا تنتظر . اندفع بلا تردد لصنع ما هو صادق

وطيب ، ما هو إلا امتحان وككل امتحان فالأجوبة الصحيحة معروفة من قبل .

وتلقيت كلماته كما يتلقى الظمآن قطرة من الماء العذب .

مَمَرُ الْبُسْتَانِ

بعد تردد طويل أجمعت على الذهاب .

نشدت الستر في الليل ، وغصت في عطفة السنبلة المستكنة تحت
أمواج الظلام . عرفت طريقى بضوء الذاكرة الخفى ، هاتك الظلمة
ومرشد القدم . وتسلفت من الباب الحديدى الموارب ففغمتنى رائحة
بخور أليفة . ومن حسن الحظ أننى لم أجد فى الدار أحدا من الزوار
فطالعتنى وحدها متربعة على أريكتها الفارسية ، فى ثوب مزخرف بألوان
شتى هادئة على هيئة أهلة وزهور ، مرسوم بخنايا جسم مدجج فصيح ،
وجفنين شبه مسدلتين ، على أنامل تعبث بأوراق اللعب ، لا تمل فى
حديثها من استطلاع الغيب . لم ترفع عينها نحوى كأنما عرفت القادم من
وقع خطاه ، وكأنما تعمدت تجاهله . ولفرط شعورى بالإثم لم أجرؤ على
مبادءتها بالتحية فجلست على أقرب كرسى إليها لائذا بالصمت . واصلت
قراءة الورق ، ومضيت أفكر فى طريقة لفتح الحديث بعد أن تبخر من
رأسى ما كنت أعدده تأثرا بجو الحجرة المفعم بالذكريات ، وبفتنة الإغراء
المائلة فى تراخ . وتظاهرت بالاهتمام كأنما كاشفها الورق بحقيقة غير
عادية ، فهمست :

— فعل آخر يناطح عناده !

وندت عنها آهة مليحة وتمتت تكمل الرؤيا :

— سيلهب ظهره سوط محملة أطرافه بالرصاص ! .

— ٣٣ —

- فقلت في تسليم مجيبا على تعريضها لى :
- ما مضى قد مضى وعلى أن أنظر إلى الغد .
- وكانها بوغت بوجودى فنظرت نحوى بدهشة وهتفت ساخرة :
- دستور يا أسيادى !
- فوضعت مظروفا متوسطا بين يديها وقلت :
- جئت لأسدد ديونى وأنظر إلى الغد ..
- فقالته مخاطب الورق :
- جاء ليسدد ديونه وينظر إلى الغد .
- فقلت برجاء :
- يجمعنا العيش والملح ، وأنت سيدة العارفين !
- فقالته بجدية لأول مرة :
- هذه أمور تقع كل يوم .
- فقلت بحرارة :
- لم يعد الزمن يأذن إلا بمطلب واحد .
- فأجابت بهدوء :
- الأمان .
- فقلت متشجعا :
- الأمان ، وكلما شاورت فى الأمر صاحبا أشار إلى رجل واحد !
- فقالته باسمته :
- إنه من يشار إليه فى هذه الأيام .
- فقلت بأسى :
- ولم أجد من أستشفع به إليه لما عرف عنه من كراهية للوساطة
- (التنظيم السرى)

— ٣٤ —

ولكنهم قالوا الى إن كلمتك أنت لا يمكن أن تخيب عند أى عظيم .
فقال في مباهاة :

— هذا حق لو أنه كان من أصحابي .

فتنهدت ولم أدر ما أقول فقلت في ملاطفة :

— اعرف طريقك بنفسك .

فندت عني ضحكة ساخرة وقلت :

— ها أنت تهزلين ..

— لو يجيء مرة واحدة للمكتبه كالأخرين ، ولكن أغلب رواد حانة القمر من أصحابي إلا هو .

فقلت في حسرة :

— آه لو تقع هذه المعجزة !

وتبادلنا النظر مليا . وفاضت عيناها بحموية طارئة ، وضحكت ، ثم سألتني :

— ما رأيك ؟

فرمقتها بنظرة متسائلة فقلت :

— أن تقوم أنت بالمهمة ..

— أى مهمة ؟

— الجيء به إلى هنا .

— ولكن كيف ؟

فقلت بجديّة :

— إنه يغادر حانة القمر عند منتصف الليل ، ثم يخترق ممر البستان إلى الميدان حيث تنتظره سيارته ، فالمر هو أنسب مكان للقائه ..

— ٣٥ —

- ولكنه أبعد ما يكون عن معرفتي !
فأغرقت في الضحك وقالت :
— تقترب منه بأدب أولاد الناس الطيبين وتقول هامسا : « أتريد
كأسا جميلا ؟ ، بيت نظيف مكنون ! » .
فقطبت غاضبا من سخريتها وأشحت عنها بوجهي ، فسألتني :
— ألا يعجبك اقتراحي ؟
فقلت بحدة :
— اسخري ما شئت من ورطتي !
فقال بجدية :
— إني جادة إن كان الأمان يهملك حقا .
فصحت متسخطا :
— كيف تتصورين أن أفعل بنفسى ذلك !
— ما هي إلا مغامرة عابرة يعقبها تحقيق المراد .
فتساءلت بازدراء :
— أليس لديك الكثيرون ممن يحترفون ذلك ؟
فقال بإباء :
— لست في حاجة إلى أحد منهم .
— وهل أكون أنا أول من تختارين .. !
— ما هي إلا مغامرة عابرة ، ألا تفهم .. ؟
— كلا لا أفهم .
— بل عليك أن تفهم ، ولا بأس أن تختار موزعا في الممر بعيدا عن نور
المصباح لتشجع بالظلام .

— وكرامتى ؟

— إلى لا أدعوك إلى الاحتراف ، ما هى إلا حيلة لمرة واحدة ، ولك أن ترفضها إن يكن لديك سبيل آخر ..

لدى عودتى لم أر ما أألمى من شدة انفعالى . لم يداخلنى شك فى قوة سيطرة المرأة على الرجال ولكنى رفضت السقوط بتصميم غاضب شرس حتى خيل إلى أنى لم أعد أكثر ثل للأمان ، مرفأ الإنسان الأخير وهو على الحافة . وكأنما هان على أن ألقى غول الغلاء وشظف العيش والمهانة والفترة الحرجة من العمر . واشتعلت فى رأسى حرب بلا هوادة ولا توقف . ورحت أجوب المقاهى والحانات فى ليل لا يريد أن يتزحزح . وقيل منتصف الليل بقليل وجدتنى واقفا فى ممر البستان عند أقصى موقع عن نور المصباح . ماذا جاء بى ؟ . لعل أردت أن ألقى نظرة من قرب على ذلك الرجل الذى لم أر إلا صورته فى الصحف فى بعض المناسبات . وكأنه كان يتحرك بانضباط فلكى ، فعند منتصف الليل تماما أهل من ناحية حانة القمر بقامته المديدة يمزق السكون بوقع خطاه الثقيلة . خفق قلبى وتهاويت من عليانى . ولما حاذانى فى مسيره تقدمت منه خطوة ، وسرعان ما تشتت عقلى فى مخاوف شتى فكدت أرى الأصابع تشير إلى . عند ذلك امحت ذاكرتى وشل لسانى . وانتبه هو إلتنى فضرب بشبا عصاه الأرض محتجا على اقترائى المفاجئ ، فتراجعت ومضى فى سبيله .

ولم يدم ذلك طويلا ففى أثناء النهار لم أعف نفسى من اتهام . لماذا ذهبت إلى ممر البستان ؟ ، لم اقتربت من الرجل خطوة ؟ . وهل معنى حقا من الكلام إلا تشتت عقلى ووقوعه فريسة للمخاوف ؟ . الحقيقة أننى أخاف الناس . هم الأشباح التى تطاردنى . ترى هل ينفعونى غدا لو

— ٣٧ —

قاسيت شظف العيش والهوان ١٩ . وانسقت بقوة إلى مطاردة الأشياء
الغريبة عن ذاتي ، ولم أبال أن أتخذ موقفى فى ممر البستان قبيل منتصف
الليل . وانتظرت فى تصميم وحيرة معا حتى أقبل الرجل نحوى فى طريقه
إلى الميدان . واقتربت منه وأنا أهمس :

— لدى كأس ونديم جميل وبیت آمن !

والتفت نحوى التفاتة سريعة . كان الظلام يفصل بيننا ولكنه أحاط
ولا شك بهيئتي .

وسرعان ما أشاح عني بوجهه وقال وهو يمضى بنيرة غاضبة :
— عليك اللعنة .

احترقت حياء وخزيا فلم يغمض لى جفن . لقد بعث أعز ما أملك بلا
ثمن . رضيت بالهوان ولكنه أعرض عني بكل ازدراء . ومع الليل ذهبت
إلى عطفة السنبلة ، وما أن رأته مقبلا على مجلسها حتى هتفت :

— الخيبة مسطورة على وجهك !

فقلبت وأنا أنخط فوق الكرسي يائسا :
— لنبحث عن وسيلة أخرى .

وحكيت لها ما حصل ، فقهرت ساخرة وقالت :

— يا لك من بغل ، تتعرض لجناحه بهذا المظهر الوقور الأنيق ١٩
فسألها حانقا :

— وماذا كان بوسعى أن أفعل ؟

فاسترسلت فى الضحك ثم قالت :

— لعله ظنك شخصا من خصومه يروم الإيقاع به ..

— على أى حال فإن ذلك يؤكد وجوب البحث عن سبيل آخر .

— ٣٨ —

فقلت بمجدية :

— لا سبيل لك غير ذلك فلتصحح التجربة .

فتفرست في وجهها الجميل غير مصدق فقالت :

— البس الرداء المناسب لغايتك .

رجعت غاضبا عليها ، غاضبا على نفسي ، غاضبا على رغبتى الملحة في الأمان . ومضت أيام وأنا مستغرق في حوار مجنون مع ذاتي ، حتى وجدتني مرتديا جلبابا وطاقية وحذاء باليا ، أنتظر في ذات الموقع بممر البستان قبيل منتصف الليل . ومن شدة إحساسي بالهوان هان على فلم أعد أبالي به . ولما أزلت الساعة أقبل بقامته المديدة فتوثبت للعمل حتى حاذاني فدنوت منه وأنا أقول :

— عندي ما يسر العين وتشتهيه النفس .

فلوح بعصاه حتى تقهقرت مذعورا وقال بامتعاض وسخرية :

— ماذا قلت يا صاحب السمو !

ورجعت إلى داري وأنا ألملم نفسي المبعثرة وأغوص في أعماق خيبة جامعة . وتضاعف سخطي ولكن تضاعف تصميمي أيضا . وذهبت إلى السيدة وقصصت عليها قصتي متحديا . غير أنها هزت رأسها في أسف وقالت :

— حقا إنك لبغل ، وفي حاجة إلى من يسندك لدى كل خطوة تخطوها .

فقلت نائرا :

— اقتربت منه لا فرق بيني وبين أحقر صعلوك .

فتساءلت ساخرة :

— ٣٩ —

— وصوتك ؟

— صوتي ؟

— خاطبته يا حضرة بالصوت الذى اعتدت أن تخاطب به
مرءوسيك !
فقلت بارتياح :
— لا أظن ..
فقاطعتنى :

— لا تبدد الوقت ، إلى خبيرة بهذه الشئون !
وغبت أياما قضيتها فى التفكير والحزن والتدريب دون أدنى تفكير فى
التراجع . وكيف أراجع بعد أن بعث كل شيء بلائمن ؟ . ولما رجعت
إلى موقعى بممر البستان كان الصبر قد أنهكنى وكذلك القلق والأسى . ولما
حانت اللحظة المرتقبة تقدمت بخفة وحنيت رأسى بذل وقلت بانكسار
ولكن بمرارة لم أستطع التخلص منها :
— عندى شيء طيب ، فى مكان محترم وآمن ..
فمضى دون اكرات إلى ، ولما هممت بإسماعه صوتى من جديد نهزنى.
قائلا :

— الأجدد أن تدعو الناس إلى المآثم !
وسرعان ما فطنت إلى زلتى ، بل الحق أننى حنقت على نفسى لغلبة
المرارة على صوتى . واعترفت بكل شيء للسيدة لأتقى سخريتها . وقلت بتسليم:
— لن أعود إلى المحاولة .
فتساءلت فى استنكار :
— أتيأس بعد أن لم يبق إلا قيراط من الصبر ؟

— ٤٠ —

فنفخت قائلا :

— لا نهاية للأخطاء ، وقد مللت ..

فقلت لى بنبرة مشجعة متجنبية أى إثارة من السخرية :

— فكر قليلا يا صاحبي القديم ، كيف يمكن أن تستسلم لليأس وأنت على قيد خطوة من النجاح ؟ ، إنك متوهم أنك صبرت بما فيه الكفاية ولكن ما قيمة الصبر بغير الرضا ؟ ، وقد أبدت إصرارا لا بأس به إذ من كان يتصور أنك تقدم على ما أقدمت عليه ؟ ، ولا تنس فى النهاية أنك تسعى إلى اصطيد رجل ولا كل الرجال ..

فقلت بريية :

— يخيل إلى أنه ليس من أهل ذلك ؟

فقلت ضاحكة :

— بل هو ذلك نفسه !

ثم مواصلة بجديّة :

— ولو لا ثقّيتى من ذلك ما عرضتك للتجربة ، وأنا لست ممن يخونون

العيش والملح ..

وتركتها بروح منتعشة ، وفتتح الورد فى صدرى من جديد ، فصبرت أياما ولا هم لى فى الحياة إلا أمر البستان ، حتى وجدتني فى الموقع أنتظر .
ورأيتة مقبلا بقامته المديدة فالتزمت موقفى حتى مر .. ثم تبعته بخشوع وأنا
أهمس :

— لا تدع فرصة العمر تفوتك !

فلم يلتفت نحوى ومضى . فتبعته بعناد وأنا أهمس :

— بيت آمن ويليق بجنابك ..

— ٤١ —

وإذا به يسألنى فجأة :

— أين ؟

فقلت بسرور لم أجربه من قبل فى حياتى كلها :

— عطفة السنبلة ، البيت الثالث إلى يمين الداخل .

وكنا اقتربنا من الميدان فنادى سائق سيارته ، ولما جاء مهرولا ، صاح به آمرا :

— اقبض على هذا الرجل وناد الشرطى !

فوضعت راحتى على فم السائق باستماتة وقلت وأنا أنتفض كالمصعوق :

— كلا .. انتظر .. لست منهم .. أنا رجل محترم ..

فأمره بإشارة أن يدعنى وشأنى وتساءل متكهما :

— محترم ؟

فقلت وما زالت أنتفض كالمصعوق :

— إليك بطاقتى ..

وتناولها وراح ينظر فيها ثم تساءل :

— كأنك محتال .

فاندفعت أقص عليه قصتى بصراحة كاملة مذ اجتاحتنى نشدان الأمان

فأزاح بقية مطالب الحياة عن كاهلى . وصمت مليا وهو يتفحصنى على

ضوء الشعاع الهابط من مصباح فى الميدان ، ثم قال ببرود :

— إياك أن تريبنى وجهك مرة أخرى !

وعقب أيام لم أحصها جررت قدمى إلى عطفة السنبلة وكأنا قد

— ٤٢ —

طعنت في العمر أعواما مديدة . ولما شارفت مدخل الدار برزت من
تلافيظ الظلام عجوز واعترضت سبيلي قائلة بصوتها الهرم :

— السيدة معتكفة .

فعرفت صاحبة الصوت وتساءلت :

— ماذا وراءك يا أم بركة ؟

فعرفت بدورها صوتي وقالت :

— السيدة تطالبك بتجنب الزيادة حتى ترسل في طلبك .

فخفق قلبي وتساءلت :

— هل تنتظر السيدة زائرا مهما ؟

فقلت أم بركة :

— لا علم لي بشيء ، اذهب مصحوبا بالسلامة .

ولم أجد مفرا من الرجوع . وتكشفت لي سحب الغموض عن أمل .
ما كانت تتخذ هذا القرار لو لم تكن تنتظر زيارة هامة . وما معنى قولها
« حتى ترسل في طلبك » لو لم يكن للأمر علاقة بمشكلتي ؟ . أسفر
الظلام عن أمل . وخفق قلبي بالرؤى . ولا ح لي الأمان بوجهه المشرق
وراء غبش الظلام . لم يبق إلا التحلي بالصبر . وها هو التلهف يحيل الصبر
عذابا حقيقيا . ومرت الأيام . وعذاب الصبر يتفجر ويزداد افتراسا .
همي الوحيد هو الانتظار . وتساؤلي المتردد هو :

— متى يجيء الرسول ؟ ١ .

البُسْرَتَانِي

كان وما زال حلمى الوردى أن أستقر بعد المعاش فى بيت ذى حديقة صغيرة . وأن أكرس بقية العمر لفلاحة الأزهار والبساتين . ومن أجل تحقيق هذا الحلم رسمت لنفسى خطة طويلة الأمد ، أن أبذل فى عملى أقصى ما أملك من جهد كى أرقى فى سلمه إلى درجة تضمن لى معاشا محترما ، وأن أسيطر على سلوكى ونظام معيشتى كى أدخر من مرتبى ما ييسر لى بناء البيت المنشود بعد انضمامى إلى إحدى الجمعيات التعاونية ، وأن أدرس دراسة متأنية فلاحة الأزهار والبساتين . ولو أن الخطة نفذت فى كتمان وحكمة ما تعرضت لقليل أو قال ، ولكننى كنت وما زلت من الآدميين الذين لا يخفون أسرار أحلامهم ، فعرف جميع أصحاب حلمى الوردى وما أعد له ، وعلم به آخرون ، حتى عرفت على مر الأيام وعلى سبيل المزاح ، بالبستائى . وجرت المقادير فى مجاريها غير عابئة بحلمى الأثير ، فتعرض العالم لويلات من الحروب والأزمات ، فمضت الأسعار فى ارتفاع وقيم النقود فى الهبوط ، ولم تتحقق وفرة بلا حساب إلا فيما أنتجت من بنين وبنات . والأدهى من ذلك كله أنى لم أحظ برئيس ينتفع بمواهبى فیرشحنى لى حلول الفرصة للترقية . وكنت أقول بصوت باتت الشكوى سمة غالبية على نبرته :

— يا سادة — ألا يلقى عملى المتواصل عندكم شيئا من الجزاء ؟

ولما لا أجد أذنا صاغية أقول :

— ٤٥ —

— وإذا عز العدل أفلا يوجد شيء من الرحمة ؟

فيقول لى رئيسى :

— انتبه لواقعك يا بستانى، أين الإنتاج الذى تحدث عنه؟، ما أنت إلا مستخدم عادى دون المستوى المطلوب ..

فأقول مستميتا فى الدفاع :

— ولكنى مجتهد ، ولكل مجتهد نصيب .

فيضحك قائلا :

— لم يعد العصر يحفل بالأمثال القديمة ، اليوم نحن نربط الخوافز بالإنتاج ..

وجعلت أغوص فى الحيرة والظلام . أقلعت عن ذكر حلمى الوردى ولكنه ظل فرجتى وحلم يقظتى . وكلما لحت لونا أخضر تراءت لخيالى الحديقة : فتنتقلت بين ورودها وأزهارها . ملقيا خبرتى فى خدمتها . متلقيا منها مسرات الأريج والألوان . غير أن زوجتى لم يكن يشغلها إلا مستحقات البقال والجزار والدروس الخصوصية ، ولا تكف عن تذكيرى . وعانيت أمر تحمل الأعباء ومرارة الإخفاق حتى رقت فى رفقاء الطريق من زملائى الخائبين فهمس فى أذنى أحدهم :

— كيف تتحمل الحياة بلا ابتسامة ؟

فسألته :

— خبرنى كيف يروق لك الابتسام ؟

فهمس بإغراء :

— عليك بخمارة « خذ واشكر » .

كان فى غاية الوقار والتعاسة فعجبت لشأنه وقلت بفتور :

— كيف تدعوننى إلى مزيد من الإنفاق ؟

فضحك قائلا :

— معاذ الله ، هل يعز عليك ادخار قرش واحد ولو بالرجوع مشيا على

الأقدام مرة ؟

تكلم بثقة و يقين فقلت أجرب ، وهكذا اهتديت إلى خمارة « خذ واشكر » فى عطفتها الأثرية « زاوية العابدين » بالباب الأخضر . وهى أشبه بمغارة فى جوف جبل ، تعيش فى ليل دائم يغوص فى عمق المبنى الضيق المهلهل التى تقع فى أسفله ، يفضى إليها باب مقوس الهامة ولا نافذة فيها ، ذات شكل بيضاوى ، وفى نهاية عمقها يقوم برميل ضخمة ذو صنوبر سفلى يجلس إلى جانبه على أريكة عجوز يدعى عبد البر ، وتصطف على جناحيها أخونة خشبية ومقاعد من القش المجدول . ويقدم الشراب فى كوب صغير مضلع لا يملأ عين الظامى ، وهو شراب مجهول الهوية لا يعرف كنهه حتى الراسخون فى السكر والعريضة . وسرعان ما تبين لى أن قلة من رواد الخمارة من يستطيعون تجرع الكوب حتى ثملته ، وكثرة تقنع بنصفه لشدة مفعوله وبقاء أثره حتى الفجر . وما كدت أرشف منه رشقات حتى أكرمنى غاية الكرم فاغتال بنفثاته الزاحفة وحوش الموم التى تطاردنى ليل نهار ، وأحل محلها الأنس والرضا والبشاشة . ووجدتنى وسط الحديقة أغرس جذورا جديدة وأقطف أزهارا يانعة . ومال صاحبى نحوى قائلا :

— هلم نناقش همونا الملحة ..

فقلت محتجا :

— أريد الحديث عن الورود وأنواعها ..

فقال ضاحكا :

— ٤٧ —

— ها قد وصلت إلى الحديقة .

فسألته :

— ألا تسمع تغريد البلابل ؟

واندفعنا نغني معا :

الزهر في الروض ابتسم

وكانت تقاليد الخمارة ترحب بالغناء . ومن كل ركن ترامت أغنية
مشرقة ، وجلس عبد البر ، بلا حراك وهو يبتسم .

* * *

وحرصت على كتمان السر ما وسعني ذلك غير أن الخمر ذات رائحة
ناطقة من المتعذر إخفاؤها إلى الأبد ، من أجل ذلك افتضح أمرى ،
وتلقت فيضا من اللوم والتعنيف وكانت زوجتى أول البادئين فقالت لى :
— أكان ينقصنا هذا الداء ؟ ..

فقلت لها بصدق :

— إنى أودى ثمنه مشيا على الأقدام ولم يمس الميزانية بسوء .

فتساءلت :

— والأولاد الذين يكبرون يوما بعد يوم ؟

فقلت بضيق :

— ربنا يستر .

ولكن السر انتشر فى أماكن كثيرة ، تعدى من لسان إلى لسان ،
فدعانى بالكاساتى من سبق أن أطلقوا على البستانى . وتحلى أثر ذلك فى
موسم الترقيات ، فقال لى رئيسى متهمكا :

— كنت ذا هم واحد فأصبحت ذا همين ..

— ٤٨ —

فقلت محتدا :

— يا أهل العدل والإنصاف ، احكموا على عملي ، ولا شأن لكم
بسلوكي خارج الديوان .

فقال الرجل بامتناع :

— ولكن الثقة لا تفرق بين هذا وذاك

فقلت محتدا أكثر :

— المسألة أنني بلا شفيع !

* * *

واستجاب القدر لشكااتي الخفية فجاد على بالشفيع المنشود . كنت في
خمار « خذ واشكر » على أحسن حال . وحكيت لصاحبي حالي بيني
وبين رئيسي وأنا مغمض العينين فقال لي :

— سيكون لك الشفيع الذي تريد .

فالتفت إليه متسائلا ولكنه كان قد اختفى تماما . وحل محله آخر لم أراه
من قبل . كان يرتدي عباءة من كتان أبيض ذات ذيل من جلد الثمر وعلى
رأسه عمامة خضراء . عجبت بهيئة وجهه التي تذكر بوجه الأسد رغم
ميل جسده إلى القصر . وسألته بدهشة :

— من أنت ؟ .. وأين جليسي ؟

فأجاب بهدوء مفعم بالثقة :

— إني شفيعك .

و لم يداخلني شك في صدقه أو قدرته ، وتلقيت ذلك فيما يشبه الإلهام
الذي لا يناقش . من أجل ذلك قمت وأنا أقول :

— ٤٩ —

— خير البر عاجله .

واصطحبته إلى بيت رئيسى فى الزيتون ، فى تلك الساعة المتأخرة من الليل . وطرقت الباب بشجاعة لا أدرى من أين مأتاها ففتح الباب بنفسه ، ونظر إلى بذهول واستياء لم يحاول إخفائه . وجلس قبالتنا فى حجرة الاستقبال متجههم الوجه ، فقلت :

— معذرة عن زيارة فى وقت غير مناسب .

فقال دون مجاملة :

— هذه الساعة من الليل !

فأومأت إلى رفيقى وقلت :

— أقدم لسيادتك شفيعى ..

فلم يحول بصره عنى ، وقرأت فى ناظره ثوجسا وقلقا ، فالتفت إلى صاحبى وقلت برجاء :

— تكلم يا سيدى ..

فقال الشفيىع بهدوئه المكين :

— إنه يستحق الترقية لدرجة جديدة فى طريقه الطويل !

فنظرت إلى رئيسى وهو غائص فى ربه البنى القائم فإذا به يتأدى فى القلق والخوف . وأشفت من إحراجة فنهضت قائما وأنا أقول :

— موعدا الغدا يا سيادة الرئيس ..

وجاءت ثمرة الشفاعة بعكس ما قدرت فقد تقرر إحالتى على المعاش قبل بلوغى السن القانونية بخمسة أعوام . ولم تجد الشكاوى المتلاحقة التى (التنظيم السرى)

— ٥٠ —

رفعتها إلى الجهات المختصة . وساء مركزى فى أسرقى وفى الأماكن الأخرى . وكاد بناء أسرقى أن ينهار لولا سعى أهل الخير لإلحاق بأعمال إضافية ، فعملت مصححا بمطبعة السعادة ، وكاتبا على الآلة الكاتبة بالقطعة فى مكتب توكيل . وبات حلم امتلاك البيت والحديقة خرافة ولكنى لم أكف عن ممارسة أحلام اليقظة فى خمار « نخذ واشكر » . وجعلت أقول لصاحبى :

— كأنما جاء الشفيح ليخرب بيتى ..
فقال الرجل :

— ولكن حالتك اليوم أحسن مما كانت وأنت فى الخدمة ..
فقلت متشكيا :

— ولكنى أعمل كالثور فى الساقية .
فقال باسما :

— الصبر مفتاح الفرج .
فقلت بحنق :

— وددت لو ينجىء مرة أخرى لأسأله .
فقال ساخرا :

— خلها على الله بلا مناقشة ولا وجع دماغ .

وبلغت دراستى لفلاحة الأزهار والبساتين غاية يعتد بها ، فسنحت لى فكرة مثيرة ، وهى أن أستثمر معلوماى متطوعا بلا أجر . ألا يجعل ذلك من الحلم حقيقة ؟ ، ومن المستحيل ممكنا ؟ . إن الحقائق الخاصة فى حينها

— ٥١ —

متوفرة بكثرة تفوق الحصر ، وإذا عرضت على أصحابها خدماى فلن يرفضوها ولو على سبيل مجاملة الجار . بذلك لا يهدر عنائى الطويل المتواصل ولا يتلاشى سرورى فى الحياة . وها أنا أمضى البقية الباقية من حياى فى الحضرة بين الأزهار دون حاجة إلى تدبير أو شراء أو بناء ، وكاننى أملك بدل الحديقة الواحدة عشرا .
هكذا حققت حلمى متجاوزا كافة عقبات الطريق ..

النَّسْرُ يَانُ

اشتعل خيالي فاتفجرت موجاته في جميع الأرجاء ولكنه لم يلم بالمدينة
 اللانهائية . إنها تربض في أي مجال من مجالات البصر ، كائنا عملاقا بلا
 حدود ولا تناسق ، ملوحة بآلاف الأذرع والسواعد والأصابع ، تستوى
 فوقها آلاف مؤلفة من الأبنية الشاهقة المجللة بطابع العصر المتعجرف
 التياه ، وأخرى متهرئة حال لونها في قبضة الزمن الجارف وثالثة آيلة
 للسقوط يلتصق بها سكانها في استسلام وإصرار ، وفي فجاجها يتلاطم
 الناس في صخب ويتلاقون في غفلة وضوضاء ، وتتابع الباصات
 والسيارات والكارو والجمال وعربات اليد عازفة أصواتها المتضاربة ،
 والحوادث كثيرة والأفراح صارخة والجنائز زاعقة والمشاجرات دامية
 والعناق حار وحناجر تنادى على سلع من الشرق والغرب والجنوب
 والشمال ، ويختلط الأنين الشاكي بشهقة الحمد والرضا .

مأوى المهاجرين من الكفر مثل طوق نجاة في البحر العاصف .
 يستقبلني شيخ القبيلة المهاجرة قائلاً :

— ابن جديد ، أهلا بك في أسرتك .

فألثم يده وأقول :

— شكرا لك يا عمي .

ووجدت مقعدى في المعهد ينتظر أيضا . وكنت عند حسن الظن
 فتوجت الرحلة بالنجاح . وألحقت بالعمل في مصلحة المساحة وأنا أقول

— ٥٥ —

« من جد وجد » . ومن العمل تسلفت إلى المقاهي والأصحاب ولكن
بمجرد المتقشفين . وراودتني أحلام القلوب الصائمة . وفي مأوانا ورود
متفتحة . ودارت العجلة بالإصباح والأصائل والأماسي . وحدث شيء
مألوف ، حلم عابر يذكر أو يغفل . ولكن يبدو أنه مضى في عيني ومضى
لم تغب عن بصر شيخنا الثاقب . فقال لي وهو متربع على أريكته يناجي
حيات مسبحته :

— في نفسك شيء يدور .

فقلت باسم :

— جاءني في المنام شخص وحذرني من النسيان ..

فتفكر مليا ثم قال باسم أيضا :

— إنه يذكرك بالشباب !

وفطنت إلى ما يلحق إليه . وفي مهجرنا لا تحول الصعاب بين المرء وبين
ما يشتهي قلبه . قبيلة متأخية متراخمة . والحجرة تتسع لزوجين يمثل ما تتسع
لفرد . والعروس جاهزة منتظرة وثمة تسهيلات جمّة ومساعدات ميسرة .
ويقول الشيخ :

— لنلتزم بالسنة الشريفة ، وعلى بركة الله .

وتطلّى الحجرة ، وتوثت بالجديد المناسب ، وتستقبل عروسين في
تلك المدينة الهائلة التي لا تبالى بأحد . والحياة في مهجرنا تقوم على
التضامن ، وتتفتق عن حيل كثيرة للتغلب على عسرة الأيام . وأقول
لنفسى وأنا في غاية السعادة :

— طريقنا عبدته أقدام أسلاف كرام .

وانهمكت في الحب والزواج والأبوة والعمل . وجعلت أقول

للشيخ :

— الفضل لله ولك .

فيقول بامتنان :

— بيتنا مثل سفينة نوح في هذا الطوفان الذي يحرق بنا .

فقلت له :

— عمى ، الناس تحسدنا وتغبطنا ..

— ويزداد ذلك كلما أمعنا في الزمن .

وانتهت ذات ليلة على الحلم يعود من جديد . ويحذرنى ذلك الرجل من النسيان . رأيته كما رأيته في المرة الأولى أو هكذا خيل إلى . الرجل هو الرجل والكلام هو الكلام . واستمع الشيخ إلى باهتمام ثم قال :

— عودتنا أن تحلم بهواجسك .

فقلت :

— قلبي مطمئن وخال من الهواجس .

— حقا ؟ ! ، ألا تفكر في مستقبل أسرتك ؟

فقلت كالاحتج :

— سعيد في هذا الزمان من يستعد ليومه .

— وماذا تفعل غدا إذا ألحت عليك المطالب ؟

فلذت بالصمت في كآبة ، فقال :

— افعل كما يفعل كثيرون ، استعن بعمل إضافي ..

ويسرلى بنفوذه التدريب في مركز سبابة . وبرعت في ذلك براعة محمودة . ورحت أستمثر خبرتي الجديدة مساء بعد فراغي من عملي الرسمي . وتوفرت أرباحي فتراكمت مدخراتي . وتابع الشيخ نجاحي

بارتياح وهو يقول :

— هذا خير من الانحراف ، وزماننا يطالبنا بأن نكون كالقطب بسبعة
أرواح .

ودب في أوصالى نشاط باهر ، وانتشيت بحب الحياة وتغافلت عن
فوضاها الضاربة في كل موضع . وأغراني ذلك باكتراء شقة غرمت فيها
خلوا لا يستهان به . وودعني عمى في شيء من الفتور وهو يقول :
— هكذا تجري الأمور .

وآمنت بأنه لا طمأنينة لحي بغير العمل والمال ، وبأن أسعد ما نناله في
دنيانا مستقبل مأمون . وحافظت على اعتدالي بقدر الإمكان فلم يجد
جديد في حياتي سوى التدخين واللحوم الدسمة والحلوى الشرقية . وتخرج
أبنائي وبناتي في مدارس اللغات . وأقبل مع الأيام كل شيء حسن . وفي
غمرة حياتي العذبة انتهت ذات ليلة على الحلم يعود للمرة الثالثة ، ويحذرنى
الرجل من النسيان كعادته . رأيته كما رأيته في المرتين السابقتين أو هكذا
خيّل إلى . الرجل هو الرجل والكلام هو الكلام . وعجبت ولم أفلح في
الاستخفاف به . ولم يكن الشيخ قريباً لأحاوره . وكنت قد انقطعت عنه
فترة غير قصيرة لانهما كى في العمل فكرهت أن أزوره زيارة غير بريئة
لمنفعة . وساورني قلق تسلل لسلوكي فعانت منه زوجتي ، وقالت لي :

— خير من ربنا وشر من أنفسنا !

فقلت باستهانة :

— ما هو إلا حلم على أى حال ..

فقلت مصدقة :

— ولا أراك تنسى شيئا ..

ولكنى لم أستطع التملص من قبضة الحلم العجيب . ظل يطاردنى ويشغل بالى . وتحت تأثيره اندفعت من الطوار إلى الطريق لأعبره دون انتباه لحركة المرو . فجأة وبلا انتباه . وانقضت على سيارة من قريب فلم تستطع أن تتحامى أو تفرمل قبل أن تصدمنى وتطيح بى كالكرة . فقدت الوعي تماماً حتى استيقظت فى المستشفى على حال لا يرحى معها أمل .

* * *

ومن منطلق العبرة والأسى يحدثنا الشيخ فيقول :
 — نقل إلى المستشفى تظله سحابة الموت السوداء ، فأجريت له جراحة خطيرة ، وثبت من التحقيق وشهادة الشهود بأنه اندفع إلى الطريق فجأة وكأنما يقصد الانتحار ، وبأن لا مؤاخذه ألبتة على السائق ، وجلست جنب فراشه وقد علمت بأنه لا أمل فى نجاته ، وزارنا صاحب السيارة مواسيا ومتطوعا لمديد المساعدة ، فمكث قليلا ثم ذهب . وتحرك جفنا ابن أخى وتجلت ومضة ضعيفة فى عينيه فأدريت أذى من فيه . وسمعتة
 بهمس :

— إنه الرجل ، هو هو صاحب الحلم ...
 وكانت آخر كلمات ندت عن شفتيه ...

صَاحِبَةُ الْعِصْمَةِ

يوم جاءت كان يوم . بياض نهاره توارى في عتمة غاشية تحت السحب المتراكمة ، ونسائمه جالت مثقلة بالبرودة تسفع الوجوه وترعد الأطراف ، ونذر المطر تهيم في الفضاء . وتوجس الناس فحملوا السلع إلى أعماق الحوانيت ولاذت عربات اليد بالأفنية . لم يبق في الحارة إلا الصغار يتحدون عبوس الجو بمرحهم المستهتر . جاءت في حنطور يتأود فوق أديم مبلط ، يشده حصان مهزول ، ويسوقه حوذي عجوز نعلان ، مسبوقة في اليوم السابق بأثاث فخيم بهر الأعين المتفحصة . وقف الحنطور أمام آخر بيت من ناحية القبو ، فمرقت منه إلى الداخل امرأة رشيقة محجبة لم يكشف نقابها المحكم عن ملمح من ملامحها ، وتبعها عجوز سافرة مقوسة الظهر من الهرم . أذاعت صاحبة البيت بأن الدور الثاني والأخير اكترته أسرة ذات شأن ووزن ولكن لم يتصور أحد أن تتكون من امرأة وحيدة وخادم عجوز . ولما دارت العربة بصعوبة لضيق المكان لترجع من حيث أتت وثب رجل نحو الحوذي وسأله :

— من أين جئت بحمولتك ؟

فأجاب العجوز وهو يهز اللجام مستحثا حصانه على السير :

— من زين العابدين .

ولم يشبع الجواب نهم أحد وأخذ الرذاذ يرش الأرض .

وقال صوت :

— ٦١ —

— الخير على قدوم الواردين .

فتعجب آخر :

— أى خير فى ه ذا الجو العاصف !

ورغم انهماك الخلق فى غيابات الحياة اليومية وانغماسهم فى الحساب
نفثوا مع أبخرة أفواههم الظنون وجاشت صدورهم بالأخيلة المحرمة ،
واستفحل الخطب بتسلل أنباء عن ترميلها المبكر ووجدتها المثيرة وترفعها
المتحدى وما خلفته وراءها من احتدام الأهواء الجاحمة . تقول مالكة البيت
بفخار :

— أرمل الشيخ النقيب صاحب الوقف المعروف باسمه وشرطه الأول
أن يبقى استحقاقها ساريا ما بقيت أرمل فإذا تزوجت سقط حقها فى
الريع ..

ويطالبها صاحب الوكالة بوصفها فتقول :

— لحظة عابرة ولكنها ثمرة ناضجة قبيل منتصف العمر ، ليس كمثل
جمالها شيء ..

. ويتجههم وجه المرأة الغامق مثل قشرة الدوم وتقول محتجة :

— لا ترحب بلقاء أحد ، ولا أنا صاحبة البيت ، أصبح على وجه
خادمتها الكركوبة أم طاهر ، أما كوثر هانم ..
ويقاطعها أكثر من رجل :

— اسمها كوثر ؟

— كوثر البدرى كما هو مرقوم فى عقد الإيجار ..

وأم طاهر تجول فى الحارة مع تعاقب الأيام . تطوف بالجزار والبقال
والفاكهى والعطار والبنان وتعرض عن المتطفلين . وسيدتها قابعة فى

أعماق ذاتها ، لا تغادر البيت ، لا تلوح في نافذة ، ولكنها غزت الأخيلة
بسحرها الخبيء ، وأشعلت الوجوه والأطراف بوقع نظرتها المتسللة الخفية
من وراء النوافذ المغلقة ، ترى ولا تُرى ، تقيم وتزن وتحكم من جانب
واحد ، وهم تحت رحمة مجهولها لا علم لهم بما يروق أو يسخط ، بما يفتح
الأبواب أو يغلقها ، بما يقرب أو يبعد . وهى وفدت إلى الحارة في وقت
استقر فيه زحل في برج الحظ المائل ، فأرسل نحسه ليعمر القاصى
والداني . ثقلت الأرواح ففقدت خفه مرحها ، وصمت الآذان عن سماع
الغناء ، وجفت القلوب فتلاشت خفقة الحب والحنان ، ومضت الشمس
تشرق وتغرب والقمر يسطع ويأفل فلا يظفر بمن يدهش أو يفرح
أو يتذكر ، ولكن احتدم البيع والشراء وتناطح الربح والخسران ، وتوالى
الملء والتفريغ ، وكثر الغش والخلف بالطلاق ، والحج لعقد الصفقات ،
والزواج لتأمين الدعارة ، واندلاع الخصومات لأتفه الأسباب ، حتى
حار من أمره ينسون ، الشاب مجهول الأب نخيل الجسم ذو قلب الطفل
ووجه العذراء ، ما بال أحد لا يداعبه أو يعطف عليه كالأيام الماضية ؟ ،
ما زال سقاء الحارة يطوف على البيوت بالقرب ولا يجده عند المساء من يلهو
معه أو يطرب لصوته إذا غنى . وفدت إلى الحارة وهى على تلك الحال فما
فعل جميعها إلا أن أرث الطمع وهيج الجشع وقده زناد الهدم والتخريب .
وقال مدعو الحكمة إن امرأة هذا حالها لا تفرط في الوقف من أجل الشرع
ولكنها في النهاية تمهد فراشها للزنا لصاحب القسمة والنصيب فيفوز
بالحب والمال معا . وفي الليالى الساهرة التى يحتفلون فيها بالصفقات الراجحة
تنهزم جحافل الليل أمام أضواء الكلوبات ، وتغص الأرض بالجماهير ،
وتزدحم الأبواب والنوافذ بالنساء . وترتسم هامتها وراء خصائص النافذة

فتنبض العروق بالحماس ، ويشمل بالنشوة السكرى والمفيقون ، فيتبارون في الرقص والمصارعة والمزاح يقدمونها قرايين تحت النافذة ، استشارة للربغات الكامنة وتمهيدا للاقتحام . ويراقب شيخ الحارة ما يجرى بعين تطفح بالكآبة فيحدث قلبه المتاعب المقبلة في طيات السحب ، ولم يجد من يحاوره إلا ينسون المستقر في رحاب الطيبة والأسى فيقول له :

— لا يتذكرون قتلى أسلافهم يا ينسون .

فيسأله الفتى الذى سعد بإقباله :

— كيف قتلوا يا شيخنا ؟

فيقول ماضغا مرارة الذكرى :

— لأنفه الأسباب يا ينسون ..

ومضت أيام ذاك الشتاء العاتى دون أن تصيب شهوة مرماها فانفجر غضب الكبرياء في القلوب المحتدمة بالضجر ، وتمخضت ليالى الغرز عن مكيدة ، فاخفت أم طاهر هاجرة خدمة السيدة الوحيدة ، وتعهدت مالكة البيت بالامتناع عن تقديم أى مساعدة للجميلة المتوارية . دبروا ذلك ليجبروا المرأة على الظهور والمشى في السوق ثم يكون بعد ذلك ما يكون . ولم تكن المكيدة مما يتفق مع تقاليد الحارة وشهامتها الموروثة ، ولكنها لم تنب عن ذوقها الذى اكتسبته أخيرا في دوامة الأعاصير الجارية ، ووعدت الجميع بإشباع نهمهم ودغدغة غرائزهم وتحقيق أخيلتهم المحمومة . ولم تشغلهم أعمالهم عن التربص بالمسكن المغلق . عما قليل ستهل عليهم بقامتها المشوقة ، كاشفة عن ذاتها ، ويتهادى إلى الآذان صوتها الناعم . وباقتراب اللحظة المترقبة اضطربت المنافسة في الأعماق ، وتوترت العلاقات واندلع الاستفزاز في المهاجر فأندر بأوخم العواقب .

— ٦٤ —

منى كل نفسه بها ورأى ذاته فى مرآة الوجود الأجدر والأحق بملكيتها شرعا
أو سفاحا . وتوثب شيخ الحارة للعمل ولكن الأحداث لم تمهله ، فنشبت
معارك وحشية ، كلما سد ثغرة انفتقت ثغرة ، وتعرت الأنفس بلا
حياء . وجمع الشيخ عزمته ومضى إلى البيت ، وطرق باب الست . ومن
وراء شراة الباب المواربة قال :

— أنا شيخ الحارة .

فجاءه صوت غاية فى العذوبة وهو يقول :

— انتظرتك من أول يوم !

— عظيم ، ماذا ترين حالا لهذه الوحلة ؟

فقالت بعتاب :

— ظننتك قادما بالحل !

— الوحش انطلق بلا رادع ، ولن يرجعه إلى قفصه إلا أن تذهبى

بسلام ..

فقالت بأسى :

— جئت هربا من هذا الوحش !

فتفكر قليلا ثم قال :

— اختارى أحدهم .

فقالت بازدراء :

— لا خيار بين هؤلاء الحقراء .

— منهم من يعد من أغنى الأغنياء .

— ليس المال ما ينقصنى .

— ستخرجين اليوم أو غدا إلى حارثهم .

— ٦٥ —

- لم أعتد الجولان في الطرقات .
- لن يسعى إليك الطعام على قدمين ؟
- فصمتت ملياً ثم قالت :
- يا شيخ الحارة ، أرسل إلى الفتى ينسون !
- فهتف الرجل ذاهلاً :
- ينسون ؟!
- فقالت بهدوء :
- نعم . إنه يصلح للخدمة .
- سيغرونه بهجر ك كما فعلوا مع أم طاهر وصاحبة البيت ؟
- قلبي يحدثني بخلاف ذلك .
- أخاف عليه سوء العاقبة .
- أرسله ، ودع الأمر لي ..
- وانتبه الرجال فإذا ينسون يعمل في خدمة السيدة الجميلة . يذهب ويحيى في طمأنينة الغافل عن النذر المحدقة به . وتغير منظره . خطر في جلباب صوفي وطاقية بيضاء ومركوب أحمر . وفي حمام السلطان تجلى لونه الحقيقي لأول مرة . وثبت لكل ذى عين أن له شباباً ورونقاً . وتفاقت الشائعات المغرضة عن العلاقة بينه وبين كوثر هانم . ولم تنهزم المرأة ولكنها تحدث الجميع بإرادة لم تجر لأحد في بال . استدعت المأذون في رابعة النهار ، وأتت — من بين معارف أسرتها — بشاهدين خطيرين ، حمل حضورهما معها فصل الخطاب ، هما شيخ الأزهر ومدير الأمن العام ، وقالت المرأة لشيخ الحارة :
- ضحيت بنصيبى في وقف النقيب قانعة بالحلب والأمان ومدخر من
- (التنظيم السرى)

— ٦٦ —

المال يكفى لبدء حياة جديدة .

* * *

وحتى اليوم أتذكر هذه الحكاية كأسطورة من أساطير الصبا ، ولكنى
أتذكر أيضا أن أبى أقسم لى مرة أنها حكاية حقيقية ، وأنه عاصرها على
عهد شبابه المولى .

فِي أَثَرِ السَّيِّدَةِ الْبَحْمِيلَةِ

ذات صباح مبكر دافئ صادفتها عند منعطف البرج وليس في الطريق
غيرنا سوى الكناس . كنت قادما نحو المنعطف من ناحية وهي قادمة من
الناحية المقابلة وبيننا أشعة الشمس المشرقة تحبوا فوق الأرض الخضراء .
ألقيت نظرة عابرة فشدت بقوة باهرة لتستقر فوق صفحة وجه ذات
مواصفات خاصة لا جدوى من وصفها . الجميلات كثيرات ولكن
إحداهن تخلص بميزة سرية يتسلل منها إلى قلب ما نداء مبهم لا يقاوم . قوته
الحقيقية في الأمر الصادر منه ، وقوته الحقيقية أيضا في الاستجابة الحارة إليه
التي لا تفسر لها . من أجل ذلك وقعت أسيرا بلا معركة أو من خلال
معركة لم أشعر بها قط . انشرح صدري بقوة عجيبة ، واستسلم قلبي بلا
قيد أو شرط ، كأنها غاية الدنيا وثمرتها النهائية ، هي ما أريد ، وما تعلو على
جميع ما تعد به الدنيا من جاه ومال وسعادة . ونسيت شواغلي جملة ،
وهوم اليوم والغد ، وما كنت ماضيا لأؤديه مما يمت بصلة لأسرتني
أو عملي . تلاشي كل شيء ، ولم يبق إلا هذه الصورة العذبة المتوجة لجسم
رشيق يمضى بها في مشية معتدلة هادئة على مبعدة أمتار وأنا في أثرها مركز
الوعي في حركتها اللدنة المتتابعة . وهالتي وأثقل مهمتي هالة الجدية التي
تكسوها ، ورصانة الخطو التي تحملها بعيدا عن ألفة المرح وأمل القرب .
ترى ماذا أبغى ؟ .
ولكنني أبغى شيئا محددًا ولا أملك خطة واضحة . المسألة بكل بساطة

أننى عاجز عن الانفصال عنها مهما تكن العواقب .
 إنه أمر خطير في الواقع . ليس لهوا أو عبثا ولكنه فقدان كامل للذات ،
 واندفاع أهوج في سبيل جديد لم يلج من قبل في جدول أعمالي ، ضعت
 بالطول والعرض وأصبح الماضي كله في خبر كان . وبعد مسيرة دقائق
 مالت الفتاة — أو المرأة — إلى المستشفى ودخلت فواصلت سري أمتارا
 ثم توقفت تحت شجرة . أتعمل في المستشفى أم تعود مريضا ؟

لم أفكر في الذهاب على أى حال ولا في التخلي عن أن أكون ظلها .
 وتذكرت في فترة الانتظار حريتي وبأنه لا يمكن إرجاع الزمن خطوة
 والإفاقة من هذه السكر الغامرة ؟ !

ومن شدة شعوري بالأسر دعوت إرادتي أن تمدني بالرعاية الواجبة ،
 ووردت على ذاكرتي تجربة سابقة متشابهة ولكنها بعيدة عن التطابق .
 ثمة سحر كان ، نفثه نظرة ساجية تحت ظلال حاجبين مقرونين وفترة
 جنون طال وفعل بي ما لا يقال ، ولكن التجربة الجديدة ، رغم ذلك ،
 جديدة تماما وغير مسبقة بنوعها ، ولا تبدو القديمة بالقياس إليها
 إلا « بروفة » باهتة . ومرت ثقل قبل أن تغادر المستشفى مقبلة نحو
 موقفى ماضية في طريقها . ولدى مرورها بي تلقيت نظرة عابرة فلم أدر
 إن كانت تذكرني أم لا ، وذهبت مجللة بمجديتها ومناعتها وفتنتها الغامضة ،
 ساحبة إياي وراءها .

وانقضت حوالى نصف ساعة قبل أن يترأى لنا ميدان التحرير .
 وصاحبني تساؤل دائم عن جدوى إصراري أو معناه أو الهدف منه ،
 ولكنه لم يقلل من حدة نشاطى المندفع . وساورتنى احتمالات ممكنة كأن
 تستقل سيارة فتغيب عن أفقى ولكننى لم أثن عن السير . وأظنها على

ما بمتابعتها ولكنها لم تبد عن أى ردة فعل ، فضلا عن أنها لا يعتبرها تعب أو ضجر . وقلت لنفسى إن محاولة التعارف خطوة لا بأس بها ، وربما تمخضت عن جديد ، وهى على أى حال خير من السير الأخرس . وأسرعت لألحق بها ، وهممت بالكلام عندما أقبل نحوها رجل قوى البنيان فخم المنظر وهو يهتف متهللا :
— أشرقت الأنوار .

تصافحا بحرارة فواصلت السير حتى وجدت مأوى قريبا وراء حجرة تفتيش كهربائية . وراقبت انهماكهما فى حديث غير مسموع . وأشار الرجل إلى محل « باباز » فمضت برفقته إليه ثم اختفيا داخله .
أنتظر أم أدخل ؟ .

لبثت فترة تمزق وحيرة ، ثم اقتحمت المحل كأنما أبحث عن شخص ما . وجعلت أجدول فى الأركان ببصرى ، فرأيتهما جالسين حول مائدة ، أمامها زجاجة بيبسى وأمامه فنجان قهوة وهو باسط أمامه صفحة يتلوها بعناية وتبادلا حديثا حول التلاوة ، فى الغالب ، فدون الرجل بعض الملاحظات ، ثم صفق داعيا الجرسون فأسرعت إلى الانتظار فى الخارج وخرجانى أعقابى ، فتصافحا أمام المحل ، أما الرجل فرجع إلى الداخل وأما المرأة فسارت نحو شارع خيرى ، وفى الحال تحركت فى خطى الرسوم . وبعد مسيرة دقائق انحرفت نحو دكان ساعاتى فوقفت تحت شجرة مستقبلًا حرارة متصاعدة وأصواتا متضاربة وزحمة تنقض ما بين مركبات وآدميين وكأنما الدنيا تقذف بأناسها وآلامها من كافة الأنواع والأشكال .

وغادرت المحل بعد ربع ساعة فتواصلت المطاردة المحمومة الخفية .

كيف يتأتى لى أن أهنس فى أذنفا بما أريد وسط هذا الانفجار الآدمى الآلى الذى يتعاظم بين دققة وأخرى تلهبه أشعة الشمس والأنفاس الحارة ؟ رأيتها تنجحه نحو « البنك الأهلى » وتغوص داخله فتوقفت فى ضيق شديد ثم دخلت وراءها متعللا بفك ورقة مالية. لمحتها تقف أمام شباك لعله لصرف الشيكات ثم تقف جنب أريكة مكتظة تنتظر . ولبت واقفا ، ولكننى خفت أن أثير ريبة فذهبت خارجا وانتظرت أمام بيع جراند ومطبوعات رحت أتفحصها وأراقب باب البنك فى الوقت ذاته . حتى متى أستطيع اتقاء الشعور بالتعب ؟ .

ها هو الوقت يمضى فى توتر أعصاب وتصلب عضلات . ثم تلوح فى باب البنك بشموخها الفطرى فيخفق فؤادى بارتياح عابر عميق . أتبعها متجدد النشاط متحين الفرصة للالتحام بها ومهما كلفنى ذلك من مخاطرة . ولكنها مالت إلى السنترال . هذا مكان لا يثير الوجود فيه تساؤلا أو ريبة . دخلت بجرة وانتظرت قريبا من المدخل أتابع سعيها لطلب رقم ما . وسمعت العاملة وهى تقول لها « رقم ١١ » رأيتها وهى تدخل المقصورة وتسحب الباب خلفها . ترى ألم يفتن بها سوى ؟ أى قضاء قضى به على هذا الصباح ؟ ثم تعب خفيف بدأ ديبه فى ساق وهناك شبح الإحباط أيضا . وظل الشك المورق . ويوجد أيضا شعور قائم بتفاهة كل شىء خارج نطاق المغامرة المجنونة . ها هى خارجة من المقصورة بوجه مورد بالرضى . تحرك .. تحرك .. لا يجوز التراجع بعد ما كان .

لعلها نسيتهنى تماما ولكن لا محيد عن السير . بلغ ركابنا شارع طلعت حرب فبلغ الزحام والحر أشده . لا فرصة أليقة للمناورة . أسبقها مرة وأتأخر عنها أكثر الوقت لعلها تتذكر رجل البرج . لم أتمكن من قراءة

أصابها أهى متزوجة ؟ مخطوبة ؟ حرة ؟ . وصادفتها امرأة من معارفها فانتحيتا جانبا ، وتوقفت مائلا نحو باب عمارة . ما أجمل ابتسامتها وأرشق إشارتها . وانتهى اللقاء فواصلت سيرها مارة أمامي لمحتني ما في ذلك شك . وكرد على ذلك زادت من سرعتها ومن جديتها . وأعود للتساؤل عن معنى ذلك . لكن لا حيلة للعقل في الموضوع كله . أو لعله يقرني على سلوكي طالما أجد فيه أملا أو سعادة . يقول لي استمر إذا شئت ولكن لا تنورط في خطأ . وأصبح الشعور بالتعب واضحا . وعرجت إلى شارع البورصة المكتظ بالسيارات الواقفة على جانبية . ويقل الزحام هنا لدرجة تغري بالجرأة . ودون تردد أحث الخطي حتى أحاذيها فوق الطوار .
أنظر نحوها فتلقى نظرتي بعين متحفزة . أقول :

— هل ..

ولكنها تقاطعني بصرامة :

— احترم نفسك ..

— أود أن أتشرف ..

ولكنها لم تسمعني غالبا لاندفاعها إلى الأمام . إنه رفض صادق . تكاثف الإحباط والشعور بالتعب .

يجب أن أعدل عن مطاردة عقيمة . لكنني لم أستطع . إنه حكم مؤبد فيما بدا . ورأيتها تدخل مكتبة الفجر الجديد . دخلت وراءها مطمئنا كما دخلت السترا . ورحت أقلب عيني في الكتب وأسترق النظر .

امتدت يدها البضة القمحية إلى كتاب « القوى الخفية » . ابتسمت رغم القهر ، وتناولت نسخة نحية لها . ثم تبعها إلى الخارج كالمنوم . ودخلنا أيضا صيدلية واضطرت إلى ابتياغ حق أسبرين . بدأت قدمي

تشكوان . توسطت الشمس السماء . عجبت لطول ما انقضى من
النهار . ولم أجد أمامي إلا الحظ فلعنته وتساءلت على وجه من أصبحت
اليوم ؟ وعبرتنى عتمة الهواجس فلم أدر كيف وصلنا إلى شارع التحرير .
ورأيتنا ماضية نحو مطعم « الشامي » فسرعان ما نهشنى الجوع . وبجراًة
اخترت مائدة مقابلة لها . ودون مبالاة غادرت مائدتها إلى أخرى في أعماق
المحل . صفعه متوقعة على أى حال . وأمرت بطبق شاو رمة مع السلطة
الخضراء . وختمت بفنجان قهوة وأنا أقرب مدخل المحل بعناية وغمرتنى
رغبة في الاستلقاء وعلى عكس ما قدرت أستفحل إحساسى بالتعب . ولما
رأيتها تنهذى خارجة قمت من فوري فتبعتها . وترىثت أمام محل أثاث لترى
في مرآة معروضة الطريق وراءها . ورأيتى بلا شك ، وواصلت سيرها في
هالة تنطق بالغضب والاحتجاج . وصدرت إليها إشارات من سيارات
عابرة تدعوها للركوب فتجاهلتها ومضت في شموخ منيع . المصيبة أنها لا
تكل ولا تمل ولا توحى بقصد هدف محدد . على الأقل هى تعلم أما أنا فلا
أعلم وحتى اليأس القاطع تمنيته . وعثرت بشيء فوق الطوار أفقد توازنى
وارتطمت برجل قذفنى بجملة كالطعنة « فتح عينك » . وانضاف إلى
الإرهاق العام إحساس بالظماً ورغبة في إفراغ المثانة وبألم نصفى في
الرأس . وثمة تساؤل مقلق هبها استجابت فماذا عندى لأقدمه ؟ . لماذا
يتماهى بى الجنون بلا طائل ؟ ورأيتها تتجه نحو حديقة « لبون » فتجدد أمل
مبهم . ووجدتها تمضى إلى مائدة عامرة بالرجال والنساء ، وتستقبل
بمناورة بالغة . أثرت في الحال أن أنتظر في الخارج لشدة الزحام ، ولكن
حتى متى أنتظر ؟ ما بى قوة والصبر يتلاشى بسرعة . وتذكرت العمل
الذى كان على أداؤه والمواعيد التى أخلفتها ، والرسائل التى كان على

تحريرها . ولكن ما جدوى الندم . واشتد ضغط الماثنة . جلّت بنظرة زائغة . اقتربت من سيارة واقفة . انهارت قوى المقاومة . استسلمت وأنا أتلّفت . وعندما أخذت أزرر البنطلون غمرني ظل رجل طويل ، مكفهر الوجه ، صاح :

— على السيارة يا وقح !

رمقته بعين خجول معتذرة ولكنه دفعني بغضب فترنحت فاقدًا صوابي ، وبغير تقدير للأمر لطمته ، فما كان منه إلا أن انهال على ضربا حتى تركني على أسوأ حال . جعلت أمسح وجهي بمنديل وأجفف به دما سال من أنفي ثم أسوى رباط الرقبة والسترة . أصبح منظري زريا ، وتضاعف تعبي وضعفي . على الآن أن أذهب بلا تردد . غير أنني لم أتحرك . حملت تعاستي ووقفت على ساقين تنان من التوجع . ما زلت أنتظر وأناجى جنوني البين . وتهادت إلى سمعي أغنية « الزهر في الروض ابتسم » فتابعها بأسى لا يناسب معانيها بحال . وخطر ببالي بيت أبي العلاء :

فسلّم إلى الله ربك فكل ما جاءك من عنده

غير أنني فكّرت في اغتيال الرجل الذي انهال على ضربا ، ولعلها أنسب نهاية لرحلة سخيقة عقيمة لا معنى لها . وانتبهت منزعجا إلى ما حولى وأنا أرى نذر المغيب تحدث بالوجود وتطوق جسدي الذي أنهكه السير وهاضته اللكمات . ولأول مرة أفكر جادا في الإقلاع عن جنسوني والرجوع من خييتي القوية .

وهمت بالتحرك عندما رأيته تغادر مدخل الحديقة وحدها وتتجه بخطوات ثابتة نحو شارع الشيخ ربحان . توهج الأمل من جديد في قلبي

الذابل وتناسيت هواجسى وتبعتهأ وأنا أجز نفسى جرا ، وأحد من بصرى
المنجذب إلى ظهرها لتكاثف العتمة . وقبيل نهاية الشارع بقليل فقدت
ذاتى بغتة . لم أدرك قبل مرور ثوان أننى سقطت فى حفرة . زلزلت
مفاصلى وفغمت خياشيمى رائحة ترايبية عميقة لم أعهد لها من قبل . ولم
يبق منى على السطح إلا عنقى ورأسى . حاولت الخروج ولكن خذلتنى
قواى الخائرة .

وأرسل عينى صوب المرأة بآخر ما أملك من طاقة على اللهفة فلا أعتز
لها على أثر . أفلتت إرادتى وأشواقى ، وهيبات أن الحق بها . الأمر يقتضى
معجزة إن يكن ثمة مجال للمعجزات .

وانتظرت أن يقترب منى عابر سبيل لأستنجد به . وبلغ منى الإعياء
غايته فأسندت رأسى إلى حافة الحفرة مستسلما إلى قدرى

السَّيِّدُ «س»

عبثاً أحاول تذكر حياتي في مجراها المفعم بالوجود قبل ساعة الميلاد .
تلك النبضة المنبثقة من تلاقى جرثومة متوترة ببويضة متلهفة في أول مأوى
آمن يتاح لي . في أي غيب كنت أهم قبل ذلك منطلقاً مع تيار متصل غير
محدود من الذكور والإناث ، تشارك في مهرجانه قوى عديدة من النبات
والحيوان وعناصر الطبيعة من ماء وتراب وحرارة وبرودة ، في تناغم مع
دورة الأرض والقمر والشمس في حضن درب التبانة العظيم الماضي في
حوار دائم مع دروب لا نهاية لها . لعل إشارات من ذلك الغيب تتجلى في
احلامي في صور أفراح غامضة وكوايس ثقيلة سرعان ما تتلاشى في كون
النسيان العنيد مخلفة في النفس قلقاً يتلاطم مع الواقع الصلد ناشراً تساؤلات
عديدة ودعوات مغربة للرقص والتنقيب . أما كهنة آمون فقد أخفوا
أسرارهم . وأما كهنة الهند فقد أعلنوا سيطرتهم على مسيرة الماء البشري
منذ أقدم العصور ولكن لا سبيل إلى اليقين في هذه المسألة ، ولو سلمت
برأيهم لتعذر على معرفة الخطيئة التي ارتكبتها في زمن سحيق ، والتي يكفر
عنها شخصي الراهن بمعاناته المستمرة التي لا يجد لها تفسيراً . فلنؤجل
القول في ذلك إلى حينه ولنلق نظرة على يوم الميلاد . إنه يوم تخفق له أفئدة
البشر وتحوطه بالبركات من خلال طقوس أبدية . يجيء الخاضع على أنغام
أهازيج شجية ، تنطرح المرأة على الفراش في جو مضمخ بأنفاس الخلق ،

ترعاها يد الخبرة ، وتحقق بها القلوب المترعة بالأشواق ، هامة بالإشفاق داعية بالسلامة ، مترقبة إذن يد العناية بالفرج ، مسبحة للخالق ، منتظرة بين آونة وأخرى أن تنجاب الدماء الحارة والأنفاس المتلاحقة عن صرخة حياة جديدة ، مكلفة بالظفر ، في لحظة صراع محتدم مع الموت المقدس . ومن حسن الطالع أن الأشهر التسعة المنقضية في الظلمات لم تتلاش في العدم ، حفظتها من الضياع ذاكرة خاصة غير الذاكرة المرصودة للحياة اليومية . سجلت حياة النطفة المزهوة بتوحيدها كما سجلت تحولها إلى علقه . وعليه فلم يندثر قلبها بين السرور والألم ، وما تلقت من انبساط وانقباض . من راحة وتوتر ، من رضى وسخط ، وما واكب نشأة العظام من اضطراب ، واستقبال اللحم بنشوة سائجة ، أما المخ والوعى فقد أضيفا جدية جاوزت حدود المقام . أصبح الغذاء من هموم الحياة اليومية ، والفضاء غير المحدود مدعاة للتأمل ، والزمن عبثا لا يستهان به ، حتى متى يستمر ذلك ؟ ، وما معنى هذه الحياة ؟ ، ولكن تغير الأمر عند اقتراب الفترة من نهايتها ، وما زامل ذلك من إحساس بالشيخوخة ، فلن يهون أبدا الرحيل إلى المجهول ، أهو العدم ؟ ، أئمة حياة أخرى ؟ ، ويأبى العقل أن يصدق ذلك أو يتعلق بأمل مخادع ، وما هي إلا خدعة سخيفة لا معنى لها . وما أن تلقفتنى يد الدنيا حتى محى الماضى محوا تاما فكأنه لم يكن . هنا ينقض الضوء والطقس والأنفاس والأصوات ويعلو البكاء لأول مرة . وتمر فترة لا أمان فيها وكأننى أهوى في فراغ ، ويمر دهر حتى ألف في الأقمطة وكأنما رجعت إلى موطنى المنسى . وينسكب الدفء في فيء ، ويحتوينى حضن ستبقى ذكراه معى طويلا .

وتمر فترة يتذكرها الحالمون جنة وارفة متناسين متاعها وأشجانها ، من افتقاد الأمان والشيع أحيانا ، واقتحام صوت مزعج أو مداعبة قاسية ، ورضع الحزن مع لبن أم لا تصفو لها الحياة دائما ، وغزو أمراض عدة تفسد مذاق الحياة . ثم تتطفل الحضارة بثقلها لتصب الوافد الجديد في قالب مهذب ، يسيطر فيه على أجهزته المختلفة ، ويتعلم المشى والكلام ، ويستعان على ذلك بالخوافز والردع ، ولا بأس بالزجر بل والضرب ، وتلوح السعادة كخيال لا يتحقق أبدا . وما أن يقوم على رجلين ، وربما قبل ذلك ، حتى يلحق به آخر فيشعر شعورا خفيا بأنه أصبح موضوعة قديمة ، وأنه يدفع دفعا إلى دخول عالم جديد هو عالم التربية الواعية الهادفة . ويتناسى الجاحدون عهده ، ويفكرون في طريقة مهذبة للتخلص منه ، فيعرفونه بالله ، بحجيمه قبل جنته ، وشياطينه قبل ملائكته ، فلم أدرك مزايا الجنة ولكنني ارتعدت أمام رعب الجحيم ، ولم أتذوق حلاوة الملائكة ولكنني تجرعت غصص الشياطين ، وأحرق في عالم منذر بالويلات . وألفت النهر والصفع واللعن والعصا ، وبذلت قصارى جهدى لأنعم بأبسط المطالب وأتفادى من العدوان . وأحمل ذات يوم إلى المدرسة فأضيف إلى عذاب الأهل عذاب الأغراب ، وأتساءل أى حياة هذه ، وهل لو كنت خيرت كنت اخترتها ؟ . وإنه لما يبعث على الضحك أن أتذكر تلك الفترة في زمن قادم باعتبارها الفردوس المفقود . ولكن مهلا فلعل هذا الحكم لا يخلو من صدق ، فما خلا يوم من ضحكة صافية أو لعبة جديدة أو هيام عذب بأصحاب ومواسم وحلوى وسينما وغناء بالإضافة إلى ساعات صفو وهناء في رحاب الأسرة . وحتى

فى أشد حالات الضيق هناك الخيال ألوذ به فىر حل بى إلى عوالم غريبة ،
ويخلق الحياة فى الجماد ، ويبدع الحكايات . ويتلقى من الوجود صورا
للأشياء والنساء والرجال والعلاقات سينضجها الزمن ويحولها إلى معان ما
كانت تخطر بالبال . وبفضل ذلك كله أتدرب على تمثيل أدوار لم يأن
زمانها بعد، فأقوم برحلات إلى بلاد الواق الواق ، وأخوض معارك
ضارية ، وأتزوج ، وأتاجر وأربح أموالا طائلة . وأصلى وأصوم فأضمن
الجنة . ولكن أيضا أتشاجر فيشج رأسى ، وأعشق قرية تكبرنى بعشرة
أعوام ، وأنحاي لأغويها فأكل علفة مناسبة . من علمك هذا الكلام يا
ولد ؟ خبر أسود ، وأنت فى البيضاء ، وأتوسل إليها داعم العين بألا
تشكونى إلى أمى . ولكن من علمك ذلك ؟ ، فى السينارأيت أشياء ومن
شباك بدروم جارنا الفقيرة رأيت أيضا ، ألا تعرف جزاء من يتلصص على
الناس ؟ توبة .. توبة . ولا تتاح النجاة حتى أوافق على حمل رسالة سرية
منها إلى أخى !! . ويجد جديد . فتحصل أمور ، وتلوح أغراض ، ويتكلم
مدعو الحكمة من الأصحاب ، إنه البلوغ . الشعر لا ينبت لغير ما سبب ،
والصوت لا يخشوشن لمجرد التغيير ، وتمتلئ النظرات البريئة بدماء الغرض
والهوى ، وتحل بالبدن قوة مجهولة مأكرة غادرة ، تضغطه بدغدغة
حاددة ، وتسكب فى الشرايين نارا ، يستهين بزواج الجحيم ونواحيه ،
يحول بينى وبين الله والطاعة والعهد ، ولم تعد الأشياء هى الأشياء ولكنها
تنقلب موضوعات للرغبة والحلم والسطو ومرتعا للخيال التهم . وربما
تحصل أمور من نوع آخر وفى نفس الوقت ، كردة فعل ، وتكفير حاد
يروى ظمأه من ندى السحاب الأبيض المشغوف بالتعالى ، فيخفق القلب
(التنظيم السرى)

خفقة لم يخفق مثلها مذ كان فكرة هائمة في عالم الغيب ، ويستوى الحب أمامه كنجمه متألق في سماء مكفهرة تحوطه العناية الملائكية وتسبح في السماوات السبع ، تمطر وابلا من الأفراح والآلام ، فتنبت في الأرض أزهارا وأنغاما ، وتستجيب للغة خفية . فتشب هنا وهناك وراء المستحيل ، في عالم مسحور فيه كل شيء إلا الأمل . مجدة وراء موسيقى الكلمات وحمرة أوراق الورد وفضية شعاع القمر وحكمة صمت الموت . وبعد عناء طويل يبيجى الشك على غير ميعاد ، ملوحا بسياط محملة أطرافها بالرصاص ، كلما ألهيته تحدى العرف والأب والأم وأركان المعبد ، وبشيء من التردد يرمى بنفسه في بئر الجنون الأحمر ، وينهل من شراب مزاجه الشهد والسقم ، ليمحق المكر والخداع ، بإشباعه حتى الموت ، وتركه جثة من الخمود والأسى . هكذا . هكذا . هكذا . وبوحى من حظ حسن تتراءى مرآة عاكسة للزمن بلا حلم أو خيال . كان من الممكن أن يحدث غير ذلك فما هي الاحتمالات تطاول احتمالات ، ولكل قصته . من أجل ذلك تمتلئ المدارس والمعاهد وتمتلئ السجون . وأمضى في سبيل طاويا ذكرياتي في زاوية أرجو لها النسيان . أصبحت كأثنا جادا ، أحيى الأهل صباحا والأصحاب مساء ، وأتلقى في اهتمام بالغ حظى من تراث البشر وخيرتهم . وتهل علينا متاعب من نوع جديد . ما رأيك هذا الدرس يتطلب عمرا لإتقانه ؟ ، أجل .. وهناك أيضا الأزمة الجديدة ، صدقت ونحن مدعوون غدا لاجتماع هام ، صدقنى لا مناص من أن يذهب هذا الجيل كله إلى الجحيم . وماذا عن مستقبلنا نحن ؟ ، لا شيء يعادل ما نبذل من جهد . ورغم كل شيء تبدأ الحياة العملية متعثرة محدودة الأمل ، مخوفة

بحياة سياسية غاية في القلق والاضطراب ، وحياة جنسية لا تقل عنها قلقاً واضطراباً . وتتعدد الطرق هنا أيضا . كان يمكن بشيء من الانتهازية أن يقبل وجه أكثر إشراقاً وأقل جدارة . وكان يمكن التهادى في التجارب المرة حيث يفضى الطريق إلى السجن أو الصعلكة . ولكن قادتنا الرغبة الحميمة في البقاء إلى الرشد المتواضع فاستقررنا فوق كرسي الروتين تحت مظلة من نسيج العنكبوت ، ورضينا بلون تقليدى من الحب أفضى بنا إلى نوع تقليدى من الزواج ، ورحنا نعبّر الجسر الذى عبره قبلنا الملايين ، نعمل بلا حماس ، ونشهد بعين الأسى تبلد عواطفنا ونقار الأسر النامية وصراع الجنسين المعروف ، وتطوف بنا مسرات لا يستهان بها ، مثل الأبوة الدافئة ، وانتصارات صغيرة تتحقق برضا المدير أو نجاح نكتة مكشوفة أو كسب عشرة طاولة وإحراز فوز سياسى مؤقت ، وهكذا .. وهكذا .. وهكذا . ونصحو ذات عيد ميلاد فإذا بالشباب قد ولى وصمت أهازيجه ، وجاء عصر العقل مصحوبا بالعناء الاقتصادى ، والدروس الخصوصية ، وجزية الطب والدواء ، والشجار لأتفه الأسباب ، والبكاء على الأطلال ، وارتفاع ضغط الدم لأول مرة ، وأكثر من جراحة إجهاض تحت شعار تنظيم الأسرة ، وإقبال شركة التأمينات مشكورة للمشاركة فى الرزق المحدود . ويحفل سيرك الأبناء بألعابه المتنوعة ، فهذا ابن يهيم فى ملعب الكرة ، ويرتكب الثانى حماقة كادت تفرق السفينة كلها ، أما الثالث فقد استبدل باله الآباء والأجداد خواجا غير مفهوم اللغة ، وأخيرا فقد أطلق الرابع لحيته وقذف الجميع بتهمة الكفر . وانهارت على التهم من كل جانب ، رجعى .. جاهل .. تقليدى .. كافر . ونفست شريكى

عن بلواها بتحميلى مسئولية كل شىء ، نتيجة التدليل والدلع ، ربنا يعاقبك على أنانيتك وزيفان عينك وسوء معاملتك لى . ولم أصدق أذنى ، ورحت أذكر بأغاني عبد الوهاب فى ضوء القمر على شاطئ النيل ، والسعى المرهق لاختيار هدية لإحياء لذكرى الزواج ، وسهر الليالى إلى جنب فراش المرض . رغم ذلك كله سارت القافلة بسلام على قدر الإمكان . ارتفعت درجة بعد درجة وكبر المرتب وتغير المكتسب والحجرة ، ولولا الغلاء المتصاعد وهزائم الحروب المتعاقبة لمضيت برأس مرفوع مكمل بهالة روتينية وشمخة بيروقراطية . ولكن ذل الحاجة والتورط فى الأعمال الإضافية خرقا لللائحة ومعاناة الأبناء ومرارة شكواهم من قلة المصروف ، كل أولئك أطفاً مشاعل المجد وأحل روح التسول مكان زهو العظمة . حتى الخادم اضطررنا للاستغناء عنها أو أنها بالحرى استغنت هى عنا ، ولم أجد إلا المواعظ ألقها بمنة ويسرة ، لاختيار فيما النجاح وإما الموت ، الترف من سوء الخلق ، اعرضوا عن الدنيا تقبل عليكم ، سيدنا محمد عاش على التمر واللبن ، وسيدنا عمر تغير لونه من أكل الزيت ، والدولة الرومانية سقطت لانغماسها فى مطالب الجسد ، كذلك الدولة الإسلامية . ويردون علىّ ومعهم أمهم . ألقى مواعظك على الحكام ، على أصحاب الملايين ، على اللصوص والخطافين والطفيليين ، نحن نريد لقمة وبدلة وأقل مصروف معقول ، أى مدير أنت ؟ ، ما جدوى خدمتك الطويلة فى حكومة لا ترعى حقها لموظفيها ، تنفق على الحفلات بغير حساب وتضن عليكم بالمليم . وأتساءل ما العمل ؟ . يجب ألا تتوقف

حياتنا وإلاضعنا . الأسهل أن ندبر حياتنا في حدودنا المتاحة من أن نحاسب الحكام والمسؤولين ، ونعرض أنفسنا لمخالبهم الحادة المفترسة ، ألا ترونهم يرمون أعداءهم بالإلحاد دفاعا عن غنائمهم ، فإذا قامت ثورة إسلامية تنمروا لها وللإسلام دفاعا عن غنائمهم ؟ ! ، فلا الإسلام يهمهم ولا الإلحاد ولا يعبدون إلا المال والجاه ، وأنا رجل ضعيف ، بدأ الشيب زحفه إلى شعري قبيل الأوان ، ولا غاية لى فى دنياى إلا أن أبلغ بكم بر الأمان ، فساعدونى يرحمكم الله كى ننجو من الغرق . وفى زحمة الغياهب تعترض سبيلى تلك المرأة اللعوب وتغمز لى بعينها . يا للهول .. هل بقى فى شىء ما زال يلفت نظر الحسان ؟ . فى وقدة الاشتعال داعبتنى نسمة متألفة بالزهو ، وفرحة واردة من الغيب ، حتى اختلت فى مشيتى وأصررت على خلق ذقنى كل صباح . وعند حساب التكاليف المطلوبة بمحدا الأذى حضرنى ملاك الرحمة ، ألا يلزمنى تقديم هدية ، أو اكترأى مكان ولو ليوم واحد ، وإعداد عشاء وشراب كالأيام الخالية ؟ . وكبحت أهوائى بقوة لا تتاح إلا للمفلسين ، وهربت معتلا بمختلف الأعذار ، وخرجت من التجربة مرسوما بنظرة احتقار لا تزول مثل الوشم ، وأشاعت الغندورة فى كل مكان بأننى مصاب بداء خفى كربه الرائحة وكلما صادفتنى فى طريق هتفت لى كيف حالك يا أقرع ؟ فأحمد الله على أننى رأيت برهان ربى فى الوقت المناسب . وهكذا.. وهكذا .. وهكذا . وأصحو ذات يوم لأجد أن الكهولة أيضا

قد ولت ، وأنتى أتخذ الإجراءات المعهودة تمهيدا للإحالة على المعاش وأنتى أودع بصفة نهائية التعاليم المالية ولائحة المخازن والمشتريات . وبقدرة الرحمن الرحيم انحلت عقدة الأزمة فتخرج الأبناء ومضى كل فى سبيله . ووجدت وشريكى أنفسنا بين يدى الشيخوخة بلا دفاع ، فبالإضافة إلى الضغط أصبحت ذا كلى عيلة وعانيت من أرق مستمر ، أما الشريكة فقد خلعت ثوب الأنوثة وباتت بين بين ، وخانتها عضوان هاما هما القلب والجهاز الهضمى ، واصطبغت بصفرة ضاربة إلى الزرقة ، ونبت لها شعيرات عند طرف أنفها واستغرقتها الصلاة والصوم . ومهما يكن من أمر فحالنا خير من حال كثيرين ، ألم أتم رسالتى على خير وجه ورغم الظروف الشرسة المتحدية ؟ ! . ولكن للأسف وجدت أمور لم تكن فى الحسبان فاثنتان من الأبناء وجدا عملا مجزيا فى الخارج فودعناهما بقلب حزين ، وأصبح أحد الاثنين الباقيين زبونا مزمنًا للشرطة والنيابة ، أما الأخير فقد تورط فيما لم يجرى فى بال وحكم عليه بعشرين سنة . وربما استطعت أن تتصور حالى ولكنك ستعجز تماما عن تصور حال شريكى . إنها لا تكف عن الدعاء على الدولة برمتها . ونابت عن ابنها السجين فى تكفير المجتمع كله ، وأرادت أن تحج لتدعو على الدولة فى بيت الله الحرام ولكن من أين لى المال الذى أحقق به رغبتها ؟ ! . وجعلت أهرب من البيت إلى الصحاب فى المقهى ، ونازعتنى نفسى إلى زيارة الأماكن التى شهدت طفولتى وصباى وأحلامى السعيدة ، وتتابع أمام عيني شريط حياتى بجميع ما حفل به من متناقضات وعبر ، وكلما شيعت صديقا أو زميلا إلى مثواه الأخير لاح لى يومى وهو يقترب ، وقلت لمرأتى إن خير ما نفوز به فى هذه الحياة هى الحكمة ، فإذا عرفناها عرفنا الرضا

وسلمنا بأنه لا شيء في الحياة يستحق الحزن أو الأسف ، فلنسلم أمرنا لله
فكل ما جاءنا من عنده . ولم يمهني المرض لمعاشرة الحكمة طويلا ،
فانطرحت على الفراش بلا حول وقال لي كل شيء إنها النهاية . وتساءلت
ترى ما مذاقك أيها الموت ، وكيف تحل إذا حللت ، وعلى أي حال نترك
هذه الدنيا المليئة بالإغراء والخداع . وذات صباح دهمتني هذه اللحظة
الفريدة المقدسة ، فقدت الوزن والتوازن وانغمست في شعور كامل الجدة
لم ينبض به الوجدان من قبل ، قلت إنني سأصبح أو أطيروا وإنني أستقبل
عالما لم يطرق من قبل ، وأن الضوء هاديء لدرجة السحر وأنه بلا نهاية ،
وأنتى مستسلم بلا اكتراث أو ألم أو ضيق وأن أهزيج البشر تعزف من
حولى . وانفلت من الجسد إلى الحقيقة المطلقة ، وتجلي لي ما قبل الميلاد
وعبورى بالدنيا والمستقر الأخير منظرا واحدا جامعا متكاملا كالوردة
الكاملة لا يخفى لها أريج ولا سر فتملت بالاستتارة والسعادة الحقيقية ، ولم
يبق معى من ذكريات الدنيا إلا المثل الشعبى الذى يقول :

« اللى تحمل هم ما يجيش أحسن منه »

شَارِعُ الْفُصْنِفِ

شارع ألف صنف ، للأحلام والحقائق ، مطهى الرغبة فى سخائها وتنوعاتها ، وتلخيص مركز معجز لشهوة الحياة . تقوم على جانبيه ذوى الطوارىء العريضين المسقوفين أشياء ناطقة بألف لسان . حوانيت متلاصقة ومتراصة مبهرة بأنافتها ، ثمينة بمعادنها ، تحطف الأبصار بشتى الألوان ، فيجد كل عضو فى الجسم البشرى وكل نرعة فى الجهاز العصبى ما يشتهي . من أغذية متعددة الجنسية ومرطبات وخمور وملابس وأدوات منزلية ، وروائح عطرية ، وأدوية ومقويات ولعب أطفال ، وسيارات وأجهزة طبية وكهربائية ووسائل للاستهلاك والإنتاج ، يضطرب بينها تيار من الخلق لا ينقطع من الجنسين وكافة الأعمار ، سوقا لمن يشتري ، ومرتا لمن يتفرج . وفى وسط جناحه الأيمن يقع مقهى « عكاظ » ، مقهى وخمارة ومطعم ولكنه يختص برجال الأعمال وعقد الصفقات ، وندر أن يطوف به زبون عادى ، بالإضافة إلى القوادين والنصابين وبنات الهوى ممن لا تتم صورة الوجود إلا بهم . وفى الأدوار العليا من العمائر توجد فنادق وهنسيونات ، يأوى إليها عادة رجال الأعمال غير القاهريين ، وفى رحاب حصانهم ينعم أهل الهوى بمنازل للدعارة شبه آمنة . من أجل ذلك جرى تاريخه منذ قديم فى سلام نسبي ، فلم ترد أخباره فى صفحات الحوادث شأن غيره من الأماكن التى تلاحقها عين الشرطة الساهرة . ومن أجل ذلك أيضا لفت مجيء ذلك الزبون الطارىء

الأنظار ، وبخاصة وأنه لم يزر مقهى عكاظ زيارة عابرة لتناول فنجان قهوة أو كأس كونياك أو طبق مكرونة ، كلا لقد اختار مجلسا في عمق المقهى غير بعيد من البوفيه . يحتله من الضحا حتى منتصف النهار ، ثم يعود إليه من الخامسة حتى وقت التشطيب . ذو مظهر متواضع ، ببذلة اقتصادية ، ووجه أربيعي ناطق بأصليه الشعبي ، فلا هو من رجال الأعمال ، ولا من أصحاب الصفقات ، ولا من رواد الفرجة والشراء ، ولا من طلاب اللهو . يأمر بفنجان قهوة ، ويجلس هادئا مبرا من سمات الانتظار والتأمل ، لا يسعى لمعرفة أحد ولا يشجع أحدا على معرفته ، كأنه غائب تماما عما يدور حوله . وتلك واقعة تمر فلا تستحق الذكر في أى مقهى إلا مقهى عكاظ الذى لم يألف إلا أعضائه المعروفين . لذلك اكتسب شهرة منذ الأسبوع الأول لظهوره . لفت الأنظار وأثار جملة من التساؤلات . وتطوع قواد لاستخراجه من قوقعته فجلس فيما يليه وسأله عن الساعة ولكن الرجل أشار صامتا إلى ساعة المقهى المثبتة في الجدار فوق الميزان ولم ينبس بكلمة . وضاق به الجميع واعتبروا حضوره غزوا لحصنهم الحصين . ومر وقت قبل أن يعرف اسمه بمحض الصدفة إذ رن جرس التليفون فرفع نادل السماعه ثم نادى :

— السيد منصور زيان .

فقام الرجل إلى التليفون تحقق به الآذان .

— آلو .

— ...

— هات ما عندك .

— ...

وطالت مكالمته المتحدث ، وأخيرا قال السيد منصور :

— طظ .

وأرجع السماعه إلى موضعها وعاد إلى مجلسه دون أن يشفى غليل أحد ، فازداد غموضا وازدادوا ضجرا . ولم يجدوا بدا في النهاية من إهماله . وشغلوا عنه بحادث يعتبر غاية في الاستثناء في هذا الشارع ، وهو كبس الشرطة لبنيون وسوق من وجد فيه من نساء ورجال إلى القسم . تبودلت نظرات حائرة ، ونوقش الموضوع على أوسع نطاق ، كيف حدث ما حدث مما يعد خرقا للتقاليد المرعية ؟ ! . ونظر قواد ناحية منصور وهمس :

— جاء النحس مع النحس .

ولم يكثر أحد لقوله . ولكن لم يكذب شهر على الحادث حتى استدعى كبير من رجال الأعمال بتهمة التهرب من ضرائبه المستحقة ، فاهتزت الأفئدة وانتشر الذعر مثل صرخة بلب . ماذا يحدث في الدنيا ؟ . ليس اليوم كالأمس . ثمة نذير شر يزحف . ولغير ما سبب منطقتي تضاعف الضيق بالسيد منصور باعتباره شؤما كما قال القواد ذات يوم . وعندما ضبطت سلع مهربة من الجمرك وقبض على أصحابها انفجر الذعر وعقد الرجال اجتماعا للتشاور . شعروا بأنهم مطاردون وبأن دورهم آت لا ريب فيه . وقال أحدهم :

— عنت لى فكرة ، إنه ليس نحسا فحسب !

— تعنى سى منصور ؟

— أجل .

— إنه مرشد ذو دور مرسوم .

— ولكنه لا يبارح مجلسه ؟

— لا علم لنا بما يفعل قبل ذلك أو بعد ذلك .

وتراكم الشك حتى صار يقينا بلا دليل . لم يجيء لتزجية الفراغ . ماذا يحمله على المجيء يوما بعد يوم ؟ . ما عمله ؟ . كيف يعيش ؟ . وأجمعوا على أنه مرشد لحساب جهة معادية وأن عمله لن يتم إلا بالقضاء عليهم أجمعين . واقترح بعضهم التخلص منه . ولكن ألا يعد ذلك حمقا غير مجد ، واستفزازا لقوة مجهولة لا يستهان بها ؟ . واقترح البعض احتواءه وشراؤه بأي ثمن ، ولديهم المال والنساء . ولعل مناسبة الاحتفال برأس السنة الجديدة أن يتيح فرصة فريدة لا صطياده . وتزين المقهى في الليلة السعيدة بالورد وتشكيلات المصابيح الكهربائية الملونة ، وتوسطه طاولة طويلة صفت فوقها قوارير الويسكي بغير حساب ، وجلس إليها في الوقت المناسب الرجال من أكبر رجل أعمال إلى أصغر قواد ، وبقي الرجل وحده بمجلسه المختار . وانضمت إلى الموجودين مجموعة مختارة من الحسان في أحسن صورة وعلى أتم استعداد . وانطلقت الأنخاب كالشهب حتى تغلغل المرح في أعماق الكآبة . والتفت أحدهم نحو الرجل وقال :

— هلا شرفتنا يا سيد منصور ؟

فبسط راحته على صدره شاكرا صامتا مصرا على توحده . ولكن الآخر لم ييأس فملأ له كأسا ورجا أقرب الجلوس إليه — امرأة — أن تقدمها له ففعلت برشاقة وقال رجل الأعمال :

— من أجل خاطرنا .

ولكنه أعاد الكأس إلى الطاولة معلنا عن شكره بإحناءة من رأسه لاإذا بصمته . وتساءل رجل الأعمال مداريا وقدة غضبه :

— ٩٤ —

— كيف تمر بك هذه الليلة كغيرها من الليالي ؟
فخرج منصور من صمته قائلاً في غير ما اكتراث :

— الواقع أنها كغيرها من الليالي .

فقال المرأة محتجة :

— لا .. لا .. وأستطيع أن أثبت ذلك .

وقال رجل أعمال آخر :

— أذكر رجلاً يشبهك تماماً إلا أنه يرتدى جبة وقفطانا .

فقال منصور :

— لعله أنا دون سواي !

— ولكنه بجبة وقفطان ؟

— هذا هو ردائي في غير فصل الشتاء !

— بدلة في الشتاء وجبة وقفطان في الصيف ؟

— بالتمام والكمال !

وتبادلوا نظرات ساخرة ، غير أنهم تقدموا خطوة جديدة مع تماديهـم في
الشراب فراحوا يقدمون أشخاصهم واحداً في إثر واحد ليحملوه على
تقديم نفسه ، ولكنه تابعهم في غير اكتراث وتحدى عربدتهم بالإصرار على
الصمت . أى إهانة ! . وقالت المرأة إن هذا يعادل أن تتعري امرأة أمام
رجل فيتخذ من جسدها مسنداً لرسالة يروم كتابتها . وسأله الرجل
وأجما :

— ألا ترغب في تقديم نفسك ؟

فأجاب في برود :

— كلا .

أيقنوا من أنه يتكلم من موقع قوة وثقة وأن وقاحته لن تقف عند حد .
وانقلب الرجل غاضبا فهتف :

— اغرب عنا قبل أن تفسد علينا ليلتنا !
فقال بتحد :

— الواقع أنكم تفسدون على ليلتي .

— لا خير فيمن لا يحب الناس .

فكرر ساخرا :

— لا خير فيمن لا يحب الناس .

وخافوا إن استسلموا للطعام والشراب أن تنحل عقدة ألسنتهم فتبوح
له بأسرار ينفذ بها إلى مصارعهم ، ففسدت السهرة بالفعل ومضت في
توتر وتعاسة . وأقسموا ليهتكن سره . وعهدوا إلى قواد معروف بالنشاط
أن يتجسس عليه ليوافيهم بخبره . وانطلق الرجل في إثره وانتظروا .
ومرت أيام وكل شيء يجرى على حاله ولكن الرجل لم يرجع من رحلته
ولم يظهر له أثر . وانتظروا أكثر وسحابة سوداء تمطرهم بالقلق ولم يسفر
الانتظار عن شيء . فقد المرشد لا ريب في ذلك ، وفي أثناء ذلك سقط
متهرب آخر ومهرب مخدرات ذو وزن في الهيئة الاجتماعية . وأظل الذعر
الشارع العتيد فانطفأت أنواره . وتطوع قواد جديد بالعمل مدعما بخذر
أشد ولكن ظلمة المجهول ابتلعه كما ابتلعت صاحبه . وتمطى كابوس الخوف
فاختفى القوادون ، وتعطلت الدعارة ، وانكمش الانحراف . ولبث
الرجل الغامض بمجلسه ، أفنديا في الشتاء وبلديا بقية العام . وتتابع
السقوط وهرب من هرب . وقال له أحدهم وهو يتأهب للذهاب :
— عرفتك ، ما أنت إلا عميل لدولة أجنبية ، اختارتك لتحطيم القوى

الوطنية ..

فهز الرجل رأسه في دهشة وتساءل :

— عم تتكلم أيها السيد الفاضل ١٩

وتخبر صاحب المقهى العجوز الذى رأى كثيرا وسمع كثيرا . رأى الحادثات وهى تقع ولكنه لم يعرف لها تفسيراً . دالت دولة الرجال الأقوياء فتساقطوا مثل أوراق الشجر الجافة . انقلب الشارع من حال إلى حال ، ذهب أناس وجاء أناس ، تراجع زبائن وقدم زبائن ، ألغيت وظائف ونشطت وظائف جديدة ، واستقبل المقهى روادا عاديين لا علم لهم بسابقيهم ، ولم يرح الرجل الغامض مكانه ، ولا بدا عليه أنه يدرك من حقائق الأمور أكثر مما يدرك هو . ويحيى قوم من هواة المعرفة فيحدثون بصاحب المقهى ويقولون :

— كل شيء حدث تحت سمعك وبصرك فعبرنا عما حصل يرحمك

الله ..

فيقول الرجل ببراءة :

— علمى علمكم يا سادة ، وها هو الرجل الذى جعلوا منه أسطورة ، مثلى ومثلكم ، ما سمعت منه كلمة غريبة ولا شهدت منه فعلا غير مألوف ، فلست أملك علما أضن به عليكم ، وما أعرف أكثر مما تعرفون من أن دنيا برمتها اختفت كما تختفى مدينة فى أعقاب زلزال مدمر ، ونشأت مكانها دنيا جديدة ، فسبحان علام الغيوب ..

المَسِيحُ وَالْوَحْشُ

(التنظيم السرى)

أعجبتني حكاية الشاطر حسن في بلاد الواق الواق . غادر ذات يوم أسرته كما يغادر الفرخ بيضته وراء حلم غامض فأسعده حظه الميمون بقاء سيدنا الخضر . وقرأ سيدنا في وجهه براءة الفطرة ونقاء الحلم فحدثه عن مأساة مسوخ تعساء مسخهم وحش آدمى أحجارا غير كريمة فأشعل في قلبه رحمة وهمة . ووهبه فرصة فريدة لتحرير المسوخ وإرجاعها إلى إنسانيتها المهذرة وذلك بقتل الوحش . ودله على المكان الملقاة فيه الأحجار المسوخة، والوسيلة التي يقتل بها الوحش، فمضى إلى بلاد الواق الواق ورأى بعينيه الخزينتين الأحجار الآدمية . وتربص بالوحش حتى جاء في وقته المعلوم فأكل وشرب ونام ، فوثب عليه وقتله ، وفي الحال تلاشت الصفة الحجرية واستوت الأحجار بشرا يهللون فرحا ببركة الحياة المستردة . ورحت أتذكر الحكاية وأنا بمجلسي المعهود في خمارة نجمة الصبح ورأسي مشعشع بالنشوة . وكالعادة غبت في أعطاف حلم وردى ، ثم انتبهت على رجل يجلس إلى جانبي يمزج النبيذ بعصير الليمون ، ملتف بعباءة أرجوانية ، معتم بعمامة خضراء ، يبهز الناظر بلحية بيضاء مسترسلة حتى ثغرة صدره . ولم يكن التطفل من شيم أهل خمارتنا ولكن الأنس حل بي فحدس قلبي أنه صديق يشع الخير من ومضات عينيه . قلت مرحبا :

— أهلا .

فقال بنيرة باسمه :

— ٩٩ —

— صحتك .

واستسلمت للنشوة إلى مراقبها حتى هتفت :

— هذه ليلة ولا كل الليالي .

فسألني بعذوبة :

— كيف اهتديت إلى هذه الخمارة التي بالكاد لا يعرفها إلا روادها ؟

فقلت جنونا :

— بحسن الحظ وحده ، ومن يومها لم يعد يؤرقني شيء ..

فتساءل بصوت يمتزج فيه الحنان بالسخرية كما يمتزج في قدحه النبيذ

بالليمون :

— ولا المسوخ ؟ !

دقت كلمة المسوخ ناقوس اليقظة في قلبي فتساءلت :

— أى مسوخ تعنى ؟

— هم مسوخ ذوو مسوخ من ضحاياهم ، ولا نجاة لهؤلاء أو أولئك

إلا بقتل الوحش !

فتهدج صوتي وأنا أقول :

— لعمرى إنك لسيدنا الخضر دون غيره !

— لا أهمية لذلك ، المهم من يكون الشاطر حسن ؟

وهم بالقيام فأمسكت براحتي وسألته بشغف :

— متى أراك ثانية ؟

فقال واقفا معلنا عن قامته الطويلة النحيلة :

— لا أهمية لذلك .

وذهب مشيعا بمردتي الخالصة. وبقوة آسرة، ودون مقدمات، آمنت

بأننى صاحب رسالة وأنه آن لى أن أودع أحلام اليقظة . ولكن من يكون

المسوخ ؟ ، ومن يكون مسوخ المسوخ ؟ ، ومن يكون الوحش ؟ . وكيف فاتنى أن أستجوبه ؟ . ولم يغيب عني السر ، فالحقيقة أن محضره يشئت الإرادة . وجدتني في محضره طوع خواطره ، مسلوب المنطق ، لا أزيد عما يريد حرفا . هذه هي الحقيقة . ولذلك لم يداخلى شك في أنه ولى من الأولياء . وأدركت بعد فوات الوقت أنني لم أنتبه لقيمة الوقت ، وأننى عبرت معه لحظة من اللحظات التى تسترجع فيما بعد بشق الأنفس فيعتدها الخيال إحدى الفرص التى لا تتكرر ولا يجدى معها الندم . واستدعيت بإشارة النادل عم زياد البرلسى ثم سألته :

— هل تعرف الشيخ الذى كان يجلس إلى جانبي ؟

فقطب متذكرا وقال :

— شغلنى العمل عن ذلك .

— ولكنك قمت بخدمته وقدمت إليه طلبه ؟

— لعله كان يجلس فى مكان ما ثم انتقل إليك بقدحه .

وكان من الممكن أن أعتبر المسألة حالا من أحوال السكر تذهب بذهابه ، ولكن لا جدوى من مخادعة النفس فالأمر أخطر مما يتصور . نفذ السهم إلى مركز اليقين . وما كان فى وسعى أن أتخلل من مهمة ألقته الأقدار على عاتقى فأرضى هائنا بالعودة إلى آفة اللاشئ . وألقيت نظرة على من حولى من السكارى فإذا بهم يسبحون فوق تيار من الهموم المتضاربة ويناقشونها بندا بندا بغير ملل . الأسعار ، التهريب ، الاستيلاء على أراضى الدولة . الثروات غير المشروعة ، سوء المعاملة ، الطواوير ، الديون ، النفوذ الأجنى ، القذارة ، المجارى ، المذابح ، وغيره مما لا يحيط به حصر ، ولكن لا أحد يتحدث عن مسوخ أو مسوخ المسوخ

— ١٠١ —

أو الوحش . ومتشجعا بخنان الليالى المتتابعة سألت :
 — هل رأى أحد منكم الشيخ ذا العباء الأرجوانية ؟
 فانطرحت لحظة صمت ثم اندفعت أصوات ضاحكة تغنى :
 يا بو العباية
 لم يبل أحد ريقى وغرقوا فى الضحك والهناء ، فعدت أسأل :
 — من المسوخ ؟ ، هل جرى لكم علم بذلك ؟
 فماجوا بحركات الضحك الراقصة غير أننى سألت بإصرار :
 — ومن يكون الوحش ؟
 فصاح أحدهم :

— أخوكم وصل ، فلتحفظنا بركة دعاء الوالدين !
 أقلعت عن السؤال . وغادرت الخمارة وأنا أعد نفسى من مواليده تلك
 الليلة العجيبة . وكلما أقبلت على الخمارة أقبلت على أمل فى أن أرى الشيخ من
 جديد ولكن دون جدوى . وطيلة نهارى أتساءل عمن يكون المسوخ
 وعمن يكون الوحش . وكلما مررت بحيوان أو شجرة أو حجر استحوذ
 على خيالى ولحت فى صميم جوهره مسخا من بنى آدم يثن ويتعذب .
 وساءتنى التفرقة فى المعاملة بينى وبين الشاطر حسن ، فبقدر ما أعانه
 الخضر على أداء مهمته بقدر ما أعرض عنى ، تاركا إياى للكدر
 والعذاب . وانتهت بى الحيرة إلى اتخاذ قرار جريء ، وهو أن أسأل أهل
 الرأى والخبرة ، مستشهدا بقول القائل « لا خاب من استرشد » . واتجه
 ذهنى أول ما اتجه نحو السيد « م » وهو من البارزين فى الحزب الوطنى
 الديمقراطى . توسلت إلى مقابله بصديق ، ثم عرضت عليه حيرتى ،
 وسألته :

— من هم المسوخ ، ومن هم مسوخ المسوخ ، ومن هو الوحش ؟
ولم يأخذ من التفكير إلا أقصر وقت ثم قال بثقة :

— عندنا نوعان منهم ، مسوخ من العملاء الملاحدة ، ومسوخ
المسوخ هم المخدوعون من أتباعهم ، والوحش في هذه الحال هو الشيوعية
أو إن شئت الاتحاد السوفييتي . ومسوخ من التيار الديني المنحرف ،
ومسوخ المسوخ هم أتباعهم من المخدوعين . والوحش في هذه الحال بعض
الدول مثل إيران وليبيا ..

وتركته شاكرا وني غصنة من خيبة الأمل إذ مهما تكن ثقتي في نفسي
ورسالتني فمن أين لي بالقوة التي أقتل بها الاتحاد السوفييتي وإيران
وليبيا ؟ . ولكن همتي لم تفتر فاتجه تفكيرى في الحال نحو الأستاذ « ١ »
المعترف بحكمته في حزب التجمع ، واستقبلنى سيادته بلا أدنى صعوبة ،
فعرضت عليه حيرتى ثم سألته :

— من هم في رأيك المسوخ ومسوخ المسوخ ومن هو الوحش ؟

فاعتدل في جلسته وابتسم ابتسامة العالم بكل شيء وقال :

— يستوى عندي أن تكون سائلا بريفا أو أن تكون قادما من طرف

السيد وزير الداخلية ، ولكن ذلك لن يمنعني من إجابتك طالما أننا نعمل في
وضوح النهار ، فاعلم أن المسوخ هم عملاء الغرب ، ولا يوجد مسوخ
المسوخ لأنه لا أتباع لهم ، وما الملتفون حولهم إلا مجموعة من الانتهازين
تجدهم بأشخاصهم في رحاب كل حكومة ، أما الوحش فهو الإمبريالية
العالمية أو إن شئت الولايات المتحدة الأمريكية ..

فأكدت لسيادته أن حيرتى نابعة من ذاقى ولا علاقة لها بالسيد وزير
الداخلية ، وشكرت له بيانه ، ثم غادرته موقنا بأن الصعود إلى القمر بلا

— ١٠٣ —

تكنولوجيا أيسر على من قتل ذلك الوحش الجديد . ومع ذلك صممت على السير في طريقي حتى نهايته . تذكرت صديقا قديما انخرط منذ أعوام في تيار ديني متطرف فقصدته دون تردد . استقبلني مداريا فتوره إكراما للمهد القديم ولكنه امتنع في الوقت نفسه عن مصافحتي متمنا :

— معذرة ، لا أضافح كافرا !

و كنت موطنا نفسى على تحمل أى سلوك يخيبنى منه فقبلت عذره . وعرضت عليه حيرتي ثم سألته :

— من هم المسوخ ؟ ، ومن مسوخ المسوخ ؟ ، ومن يكون

الوحش ؟

فقال من فوره :

— المسوخ هم حكام البلاد الإسلامية ورجال الدين بها ، ومسوخ المسوخ هم جمهرة المسلمين ، وأما الوحش فهو نظام الحكم في كل مكان ..

وغادرت موضعه مغموسا في المرارة . خيل إلى أن القضاء على الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة معا أيسر من القضاء على الوحش الجديد ، ولكنى لم أنش عن مسيرتي . وتذكرت الأستاذ « ن » الذى يمثل فكر الوفد كخير ما يكون التنبيل . واستقبلنى سيادته بحرارة لا توهب عادة إلا للأصدقاء . وعرضت عليه حيرتي ثم سألته :

— من هم المسوخ ، ومن هم مسوخ المسوخ ، ومن هو الوحش ؟

فقال باسمي في ثقة تامة :

— المسوخ هم جميع السياسيين غير الوفديين ، ولا أتباع لهم في الحقيقة فالبلد وفدى مائة في المائة ، أما الوحش فهو النظام الدكتاتورى الذى لم

يوفق بعد إلى قناع يخفى به وجهه ..

وتركته شاكرا وأنا أقول لنفسي حقا إن هذا الوحش يبدو أقرب إلى اليد من الوحوش الأخرى ولكن بالقياس إلى قوتي الذاتية يمكن القول بأن « سى أحمد أخو الحاج أحمد » . ولم يبق في جدولي إلا المثقفون فاخترت الأستاذ « ا » لمنزلته المعترف بها من الجميع . واستقبلني بحياء فعرضت عليه حيرتي ثم سأله :

— من هم يا أستاذ المسوخ ، ومن هم مسوخ المسوخ ، ومن هو الوحش ؟
فأجابني بجفاء :

— المسوخ هم الجهلة وتجدهم في كل موقع لا بقاء لهم إلا بالقوة ، ومسوخ المسوخ أتباعهم وهم أجهل منهم ولكنهم أكبر دهاء وانتهازية ، أما الوحش فهو الجهل ..

وتركته وأنا أتساءل وكيف يمكنني قتل الجهل ؟ . أجل إلى أعتبر الأستاذ « و » خيرا من يجسد الجهل ولكن هل يزول الجهل بقتله ؟ . ووجدتني أغوص أكثر وأكثر في دوامة لا فكاك منها ، حتى ورد على خيالي مولاي العارف بالله الشيخ « ص » فقصدته من فوري ، واستقبلني — كالعادة — باسم مرحبا ، ولكنه بادرني قائلا :

— أعرف ما سافلك إلى اليوم !

فلم أدهش لسابق علمي بقدرته على النفاذ إلى أعماق القلوب . وقال متعني الله بعمره ونوانيته :

— ما المسوخ إلا عشاق هذه الدنيا الفانية ، ومسوخ المسوخ هم المهورون بما يملك سادتهم من زخارف زائلة ، أما الوحش فهو النفس

— ١٠٥ —

الضالة ..

وعدت إلى بيتي وأنا أقول لنفسي حقا إن هذا الوحش لا يستهان بأمره ، ولكن قتله ممكن ، ولن يعرضني لقبضة القانون . وأعلنت الحرب ، وأقسمت على الصمود والتصدي مهما طال لي الزمن . ولم أهجر بطبيعة الحال خمارة نجمة الصبح التي عرفت أستاذي العارف بالله في ركن من أركانها . وفي ذات ليلة وأنا تملى بنشوتي في مجلسي المختار انتهت على وجود صاحب العباء الأرجوانية إلى جانبي وهو يمزج النبيذ بالليمون . وهتفت :

— يا للسعادة ، لقد جئت أخيرا ..

ولكنه لم يعرنى أدنى اهتمام فقلت :

— لقد عملت بمشورتك ، وها أنا أقاتل الوحش حتى أقتله ..

وأصر على تجاهلي تماما ، ولم يلق على نظرة واحدة ولم تهب على من ناحيته نسمة أنس أو مودة .

وأفرغ قدحه في فيه ثم نهض متجهما وذهب .

تركتني لحيرة لم تخطر لي في بال .

البَقَاءُ لِلأَصْلَحِ

المنة لله ، لا أحمل في الدنيا هما . مترجم محترم ، ومالك بيت مكون من ثلاثة أدوار وبدروم ، متزوج وموفق وأب لشاب وشابة متزوجين ، وإلى هذا كله فإنني حسن المضم لموم الدنيا الصغيرة . في العصارى — عدا أيام الشتاء — أجلس في شرفة الدور الأوسط برفقة زوجي والقهوة والفل السوداني واللبن الأبيض ، يترامى أمام أعيننا شارع البطريق بجوانيته وجراجه العمومي ، نتفرج على كل من هب ودب . من مجلسنا نرى سكان بيتنا في الذهاب والإياب ، على كمال ساكن الدور الأعلى وهو حمام ونطلق عليه « الأستاذ » ، وصاحب الدور الأول مذكور البقل ونطلق عليه « الشيخ » رغم أنه أفندى وذلك لإرساله لحيته ، أما البدروم فتقيم فيه ست محسنة رضوان وندعوها « المحمل » لسمانتها . وعلى صغر البيت فكل أسرة مستقلة بذاتها لا تعرف من أصول الجيرة إلا التحية العابرة عند اللقاء النادر . من أجل ذلك انطلوت كل أسرة على أسرارها فلا أعرف عن أى منها شيئا يستحق الذكر . غير أنني لاحظت دون جهد كثرة زوار الأستاذ والشيخ أما ست محسنة فكانت تعيش في عزلة شبه مطلقة . وذات يوم طلب الأستاذ مقابلتى فاستقبلته مرحبا ومداريا قلقى حيال قسماته الحادة ونظراته الثاقبة . اعتذر عن تطفله بأسلوب لبق ثم قال :

— ١٠٩ —

— حرصا على وقتك سأدخل في الموضوع مباشرة .

فشجعت بابتسامة فقال :

— أنا في حاجة إلى البدرود والدور الأول وسيعود عليك ذلك بخير

ونفيرا !

فقلت وأنا في غاية الدهشة :

— ولكن لكل ساكنه وأنت أدرى بقوانين المساكن !

فقال بثقة :

— سيضطرون إلى إخلاء مسكنهما ولكن يجب أن نتفق قبل ذلك .

فتساءلت في حيرة :

— كيف ؟

فكور قبضته السمراء تحت ذقنه وقال :

— ثبت لدى أن مذكور البقل من الخطرين وأنه جعل من شقته ملتقى

لنفر من التيار المتطرف .

فتولاني خوف وقلق وقلت :

— لا علم لي بذلك ولا شأن لي به .

— طبعاً ، سأتكفل بالواجب ، ولكننا علينا أن نتفق أولاً ..

— وست محسنة رضوان ؟

فضحك ضحكة مقتضبة وقال :

— اصبر يا ناعم ، إنها تنتظر حتى يحتم النوم ثم تستقبل أهل الدعارة !

ففزعزت هاتفياً :

— ١١٠ —

— لا !

— هي الحقيقة ، وسوف تلمسها بنفسك ..

— إنك مقدم على مغامرة خطيرة !

— إني واثق من نفسي تماما .

وشملنا صمت غير قصير ، ولما استرددت أنفاسي سألته :

— وماذا تفعل بالشتتين ؟

— سأجعل من البدروم مطبعة ومن الدور الأول دارا للنشر ،

وسيكون لك عقد مناسب ..

وقلت وأنا أنفخ :

— تلزمني مهلة للتفكير والتشاور مع الهائم .

فقام وهو يقول :

— طبعاً ، ولكن ليكن الموضوع سرا بيننا .

وأفضيت بهمي كله إلى زوجي فقلبت الأمر على وجوهه ثم انتهت إلى أنه إذا صح ما يدعيه الأستاذ ونجح تدبيره فسوف يتطهر البيت ويضاعف الدخل ، وما علينا من بأس طالما أنه لن يورطنا فيما لا نحب . ولكن قبل أن يتم اللقاء مع الأستاذ طلب الشيخ مذكور البقل مقابلتى . توقعت من فورى مزيدا من الارتباك والهواجس ، وخيل إلى أنه شعر بطريقة ما بما يدور حوله فبادر للعمل . وتقابلنا فاعتذر عن إزعاجى وقال :

— يقتضيني ديني أن أصارحك بالحق الذى علمته ، فقد ثبت عندى أن

الدور الأعلى ما هو إلا خلية هدامة ، وأن البدروم بؤرة فسق ، وسأقوم بما

— ١١١ —

يفرضه على ديني وضميري ..

انهالت على كلماته كطلقات الرصاص ففرقت في دوامة صاخبة
وتمتت :

— أى فظاعة لم تجر لي في بال !

— إنك رجل طيب وحسن الظن بالناس، وسيكون خلاص بيتك على
يدي إن شاء الله، وفي مقابل ذلك أرجو أن توافق على تأجير الشقتين لي !
فتساءلت بذهول :

— ما حاجتك إليهما ؟

— سأجعل من البدروم مطبعة ومن الشقة دار نشر وعلى أن يتم الاتفاق
بيننا على ذلك .

فقلت وأنا أغوص أكثر وأكثر في الدهشة والارتباك :

— أعطني مهلة للتفكير .

فقام وهو يقول :

— لك هذا يا أخى في الإسلام ، وليكن الأمر سرا بيننا ، ولكن تذكر
أن خير البر عاجله ..

ولما علمت زوجي بما دار بيننا برد حماسها الأول ، وبدأ لها الأمر أشد
تعقدا وخطورة فخافت التورط فيما لا تحمد عقباه ، وتفكرت مليا ثم
انتهت إلى رأى فقالت :

— علينا أن نمتنع عن أى اتفاق ثم ننتظر .

فارتحت إلى رأيها ، وعزمت على مصارحة الرجلين بأنه لا شأن لنا

— ١١٢ —

بالموضوع . ولا اتفاق ترتبط به قبل أن ينجلي الموقف . ولم تكذب تمضي
ساعات على ذهاب الشيخ حتى رن جرس الشقة ، وإذا بست محسنة
رضوان تطالعني بجسمها المترامي ، في فستان بنى محتشم ، معتمرة بخمار
أبيض . تمتعت :

— دستوركم .

ثم مضت نحو حجرة الاستقبال تبختر كالتختروان وجلست وهي
تقول :

— أود الاجتماع بك والست حرملك .

وقد كان . وفي أثناء الجلسة استرقت النظر مستطلعا فبدت لي غير ما تبدو
من بعيد ، لا لحسنها ونضجها الأنثوى فحسب ، ولكن لتلك النظرة التي
لا يخفيها التصنع ، نظرة مليئة بالخبرة والجون فقلت لنفسى إنها ولا شك كما
يقال عنها . وقالت المرأة بنبرة جريئة وناعمة :

— كان يجب أن تتعارف من قبل كما يليق بامرأة وحيدة مثلي . ولكنني
شعرت بأنكما تؤثران العزلة ..

ثم مغيرة درجة صوتها إلى مقام أدنى مشحون باهتمام أكثر :
— ما علينا ، ها هي الضرورة تسوقني إليكم ، وتدعوننا جميعا للدفاع
عن النفس !

فأقبلت زوجي نحوها بتركيز أكثر قائلة :

— خيرا ؟

— يصدق على بيتنا المثل القائل يا ما تحت الساهي دواهي ، وبفضل من

— ١١٣ —

سهرى المعتاد وراء الشيش المغلق عرفت أشياء وأشياء ..
وتساءلت أعيننا دون أن تنبس شفاهنا فواصلت المرأة :
— تبين لى أن الدور الأعلى وكر هدامين وأن الدور الأول وكر
منحرفين ، رأيت بعينى وسمعت بأذنى ، وأخوف ما أخاف أن يكون
المسكنان قد تحولا إلى مخزنين للذخيرة ، وأن نكون عرضة للهلاك ونحن
لا ندرى !

فاستعازت زوجى بالله بصوت متهدج فقالت ست محسنة :
— اطمئنى فإنى أعرف كيف أدافع عن نفسى ، وعن الناس الطيبين ،
غير أنه لى رجاء هو أن أستاذجر شقتيهما بعد خلوهما !
فتسمرت زوجى قائلة :
— لك هذا يا ست محسنة .

أما أنا فسألتها :
— وما حاجتك إليهما ؟
فقالت باسمه كاشفة عن سنتين ذهبيتين لأول مرة :
— بصراحة سأجعل الدور الأول كافتيريا والآخر مطعما على أحدث
طراز ، وسيدر العقد الجديد عليكم أكثر مما تدر عمارة ، ولذلك يجب أن
يتم بيننا اتفاق مبدئى !

ومن منطلق تجربتى السابقة بالموقف نفسه قلت :
— تلزمننا مهلة للتفكير .
— صدقنى لا ضرورة لذلك ، سيتم كل شيء بأسرع مما تتصور !
(التنظيم السرى)

— ١١٤ —

قتممت :

— مهلة قصيرة ..

— أمرك، ولا تنس صاحبة الفضل في تخليصك من شر مؤكد .

ثم وهى تمضى فى سبيلها :

— يكفينى كلمة شرف !

فقالت زوجى بحرارة :

— كلمة شرف لا رجوع عنها !

وحقا تتابعث الأحداث بأسرع مما تصورنا . فى تلك الليلة اقتحم

رجال الأمن الشقتين ، وسمعنا أنهم عثروا على أدلة بينة ، وختمت الشقتان

بالشمع الأحمر . ولما زایلنا الذهول والانفعال قلبت لزوجى :

— ستطالبنا بإتمام الاتفاق .

فقالت بثقة :

— إنها صفقة رابحة ولعله من الأوفق أن نتقل نحن إلى الدور الأعلى بعيدا

عن الضجة :

فقلت بقلق :

— ولكنى أرجع أن ما قبل عنها حق وصدق .

— لو صبح ذلك لقبض عليها أيضا !

— لها عينان فاجرتان ..

— إنها بالنسبة إلى صاحبة فضل ولسنا المسئولين عن الأخلاق فى البلد .

وكان للمرأة ما أرادت . وتحول بيتنا إلى كافيتريا ومطعم على أحدث

— ١١٥ —

طراز . فى بادئ الأمر ساورنى شك فى نجاح المشروع لبعء مكانه عن
وسط المدينة ، ولكن سرعان ما أذهلنى نجاحه ، وإقبال السيارات الفارهة
عليه حاملة أناسا ما كان يخطر ببال أنهم سيشرفون بيتى المتواضع بحال من
الأحوال .
المنة الله ، لا أحمل فى الدنيا هما.

الفأر النرويجي

من حسن الحظ ألا نكون وحدنا في هذه المحنة . وقد دعانا السيد (ا . م) بوصفه أقدم ملاك الشفق في العمارة إلى اجتماع في شقته لتبادل الرأي . لم يزد عدد الحاضرين عن عشرة بما فيهم الداعي السيد (ا . م) وهو فضلا عن أقدميته أوسعنا ثراء وأرفعنا مركزا . ولم يتخلف أحد ، كيف يتخلف والمسألة تتعلق بالفئران وغزوها المحتمل لبيوتنا وتهديدها لأمننا وسلامتنا . ويبدأ الداعي بصوت ملؤه الجدية « تعلمون ... » ثم يسرد ما تردده الصحف عن زحف الفئران وأعدادها الهائلة وتخريبها البشع . وترتفع أصوات من أركان الحجرة :

— ما يقال يفوق الخيال .

— هل رأيتم الريبورتاج التلفزيوني ؟

— ليست فئران عادية ولكنها تهاجم القطط والآدميين .

— ألا يحتمل أن يوجد شيء من المبالغة في الموضوع ؟

— لا .. لا ، الواقع أكبر من أي مبالغة .

ثم يقول السيد (ا . م) بهدوء واعتزاز برياسته :

— على أي حال ثبت أننا لسنا وحدنا ، هذا ما أكدته لي السيد المحافظ .

— جميل أن نسمع ذلك .

— فما علينا إلا أن ننفذ التعليمات بدقة ، ما يجيء منها عنى مباشرة أو

— ١١٩ —

- ما يجيء عن طريق السلطة ..
وخطر لأحدنا أن يسأل :
— هل يكيدنا ذلك تكاليف باهظة ؟
فلجأ إلى الدين قائلا :
— الله لا يكلف نفسا إلا وسعها .
— المهم ألا تكون مرهقة .
فلجأ إلى الحكمة قائلا :
— لا يدفع الشر بما هو شر منه !
وعند ذاك قال أكثر من صوت :
— ستجدنا إن شاء الله من المتعاونين .
فقال السيد (ا . م) :
— نحن معكم ولكن لا تعتمدوا علينا كل الاعتماد ، اعتمدوا أيضا على
أنفسكم ابدءوا على الأقل بالبدييات .
— عين العقل والصواب ولكن ما البدبييات ؟
— اقتناء المصايد والسموم التقليدية .
— عظيم .
— الإكثار ما أمكن من القبط في بحر السلم وفوق السطح وفي الشقق
أيضا إذا سمحت الظروف .
— لكن يقال إن الفأر النرويجي يهاجم القبط ؟
— لن يخلو القط من فائدة .
ورجعنا إلى مساكننا بروح عالية وعزيمة صادقة . وسرعان ما غلب

التفكير في الفقران على سائر هومنا . فكثر ورودها علينا في أحلامنا وشغلت أوسع مساحة في حوارنا ، وتصدت لنا باعتبارها المشكلة الأولى في وجودنا . ومضينا ننفذ ما تعهدنا به ، ولبثنا ننتظر مجيء العدو . يقول بعضنا إنه لم يبق من الزمن إلا أقله ، ويقول آخرون سنلمح ذات يوم فأرا يمرق فيكون النذير بأن الخطر قد دهم . وتضاربت التفسيرات حول تكاثر الفقران . هو في رأى نتيجة لخلو مدن القنال حين الهجرة وفي رأى يرجع إلى سلبيات السد العالي ، ورأى يحيله إلى نظام الحكم ، وكثرة ترى فيه غضبا من الله على عباده لتكرهم لهداه . وبدلنا جهدا مشكورا للاستعداد الرشيد لم يتهاون فيه أحد . وفي اجتماع تال بمسكن السيد الفاضل (١ . م) قال حفظه الله :

— سرني ما اتخذتم من أسباب الوقاية ، وأسعدني أن أرى مدخل عمارتنا وهو يموج بالقطط ، أجل إن البعض شكا إلى تكاليف تغذيتها ولكن كل شيء يهون في سبيل الأمن والأمان ..
وقلب عينيه في وجوهنا بارتياح ثم تساءل :

— ترى ما أخبار المصايد ؟

فأجاب أحدنا وهو مرب فاضل :

— سقط عندي فأر هزيل من فقراننا الوطنية .

— أيا تكن هوية الفأر فهو مؤذ ، أما اليوم فيهمنى أن أبلغكم بوجوب المزيد من الحيلة بعد أن أصبح العدو على الأبواب ، وسوف توزع علينا كميات من السم الجديد المطحون في الذرة ، يوضع في الأماكن الحساسة مثل المطبخ مع الحذر الشديد لحماية الأطفال والدواجن والحيوانات

المستأنسة ..

وحصل فعلا ما وعد به الرجل ، وقلنا حقاً لسنا وحدنا في المعركة ،
وتدقق منا الثناء على جارنا الهمام ، ومحافظنا الجليل . أجل حملنا ذلك
الكثير من الانتباه يضاف إلى همومنا اليومية . كذلك وقعت أخطاء لا
مفر منها ، فقتلت قطعة في إحدى الشقق ، وعدد من الدجاج في شقة
أخرى . ولكن لم تحدث خسائر في أرواح البشر . وكلما مضى وقت
اشتد توتر أعصابنا ويقظتنا وثقل على قلوبنا هم الانتظار فقلنا وقوع البلاء
ولا انتظاره . ويقابلني جار ذات يوم في محطة الباص فيقول لي :
— سمعت من ثقة أن الفئران أهلكت قرية وزمامها كله .

— لا أثر لهذا الخبر في الجرائد !

فحدجنى بنظرة ساخرة ولم ينبس . وتخيّل الأرض سائلة بحشود من
الفئران لا أول لها ولا آخر ، وجموعاً من المهاجرين تهيم على وجهها في
الصحراء ، أيمن أن يقع هذا يارنى ؟ ! ولكن ما وجه الاستحالة في
ذلك ؟ . ألم يرسل الله من قبل الطوفان والطير الأبايل ؟ . هل يكف
الناس غداً عن كفاحهم اليومي ليرموا بما يملكون في أتون المعركة ؟ . وهل
ينتصرون أو تكون النهاية ؟

وفي الاجتماع الثالث بدا السيد (ا . م) منشراحاً يقول :

— تهانى ياسادة ، النشاط متقد على أكمل وجه والخسائر ضئيلة لا
تذكر ولن تتكرر بإذن الله ، وسوف نصبح من أهل الخبرة في مقاومة
الفئران ، وربما استعانوا بنا في المستقبل في أماكن أخرى ، والسيد المحافظ في
غاية من السعادة ..

— ١٢٢ —

وأراد أحدنا أن يشكو قائلاً :

— الحق أن أعصابنا ..

ولكن السيد (ا . م) قاطعه :

— أعصابنا ؟ .. لا تفسد نجاحنا بكلمة طائشة !

— متى يبدأ الهجوم الفأرى ؟

— لا أحد يستطيع أن يقطع برأى ، ولا أهمية لذلك طالما أننا مستعدون

للمعركة ..

ثم واصل بعد فينة صمت :

— التعليمات الجديدة ذات خطورة خاصة وهى تتعلق بالنوافذ والأبواب وأى ثقب فى جدار أو غيره . أغلقوا النوافذ والأبواب ، افحصوا حافة الباب السفلية بصفة خاصة ، فإن وجد زيق تنفذ منه قشة أقيموا وراءه عوارض خشبية لتسده بالكامل ، وعند التنظيف صباحاً يبدأ بحجرة فتفتح نوافذها ، يكنس فرد ويقف آخر مسلحاً بعصا للمراقبة ثم تغلق النوافذ ويتنقل إلى حجرة تالية بنفس الأسلوب ، وبانتهاء التنظيف تكون الشقة علبه محكمة الإغلاق أيا كان المناخ ..

وتبادلنا النظرات فى وجوم وقال صوت :

— من المتعذر الاستمرار فى ذلك .

فقال الرجل بوضوح :

— بل عليكم أن تلتزموا بالدقة البالغة فى التنفيذ ..

— حتى فى الزنزانة توجد ..

وسرعان ما قاطعه بحدة :

— نحن في حرب ، أى في حال طوارئ ، وليس الخراب فقط ما يهددنا
ولكن الأوبئة أيضا والعياذ بالله يجب أن نحسب حسابها !
ومضينا ننفذ ما أمرنا به صاغرين . وغصنا أكثر في مستنقع الترقب
والحذر وما يصحبه من ضيق وملل . واشتد توتر الأعصاب فترجم إلى
منازعات حادة يومية بين رب البيت وربتها والأبناء . ورحنا نتابع الأنباء
فصار الغار النروييجي يجسمه الضخم وشاربه الطويل ونظرته المنذرة
الزجاجية نجما من نجوم الشر يجول في أخيلتنا وأحلامنا ، ويستقطب جل
أحاديثنا . وفي آخر اجتماع قال السيد (ا . م) :
— بشرى ، خصصت فرقة من أهل الخبرة لتفقد العمائر والشقق
والمحال المعرضة للخطر ، وذلك دون المطالبة بأية رسوم إضافية ..
وكان خبرا سارا استقبلناه بارتياح عام ، وأملنا أن نزيح عن صدورنا
بعض العناء الذى تعانیه . وذات يوم أخبرنا البواب أن المندوب تفقد
مدخل العمارة وبثر السلم والسطح والجراج فبارك جماعات القطط
المنتشرة هنا وهناك ، ونبه عليه بالمزيد من اليقظة والإبلاغ عن أى فأر
يظهر ، نروييجيا كان أو مصرياً . وعقب انقضاء أسبوع واحد على
الاجتماع دق جرس الشقة وإذا بالبواب ييشرنا بقدم المندوب مستأذنا في
التفتيش . لم يكن الوقت مناسباً إذ كانت زوجى قد فرغت لتوها من إعداد
الغداء غير أنني هرعت إلى الخارج لأرحب بالقادم . وجدتنى أمام رجل
متوسط العمر مكتنز الجسم ذى شارب غليظ يذكر وجهه المربع بوجه قط
بأنفه القصير المطموس ونظرته الزجاجية . رحبت به مداريا ابتسامة
كادت تنقلب إلى ضحكة ، وقلت لنفسى حقاً إنهم يحسنون الاختيار .

— ١٢٤ —

وسرت بين يديه ومضى يتفقد المصائد والسموم والنوافذ والأبواب ويهز رأسه بارتياح . غير أنه رأى في المطبخ نافذة صغيرة مصفحة بغشاء سلكي ذى ثقبوب بالغة الصغر فقال بحزم :

— أغلقوا النافذة .

وهمت زوجى بالاحتجاج ولكنه بادرها قائلاً :

— الفأر النرويحي يقرض السلك !

ولما اطمأن إلى نفاذ أمره راح يتشمم رائحة الطعام معلناً استحسانه فقلت له :

— تفضل .

فقال ببساطة :

— لا يأتى الكرامة إلا لليم !

وفى الحال أعددت له مائدة وحده زاعمين له أننا سبقناه . وجلس إلى المائدة وكأنما يجلس فى بيته ، وجعل يلتهم الطعام بلا حرج ولا حياء وبهمهم عجيب . ومن باب الذوق غادرناه وحده . غير أنني رأيت بعد حين أن أطوف به لعله فى حاجة إلى شىء . وفعلاً جددت له طبقاً ، وفى أثناء ذلك لاحظت تغيراً مثيراً فى منظره شد إليه عيني بقوة وذهول . خيل إلى أن هيئة وجهه لم تعد تذكر بالقط ، ولكنها تذكر بالفأر ، بل الفأر النرويحي نفسه . ورجعت إلى زوجى رأسى يدور ، لم أصرح لها بما رأيت ولكننى طالبتها بأن تشجعه وترحب به ، فغابت دقيقة أو دقيقتين ثم رجعت شاحبة اللون وحملت فى وجهى ذاهلة ، ثم تمتمت :

— أ رأيت شكله وهو يأكل ؟

— ١٢٥ —

فأحسيت رأسى بالإيجاب فهمست :

— إنه لأمر مدها ، بعز على التصديق .

فوافقتها على رأيها بهزة من رأسى الدائر . ويبدو أن إغراقنا فى الدهول
أنسانا مرور الوقت فانتبهنا مع صوته آتيا من الصالة وهو يقول بمرح :

— عامرا !

فاندفعنا نحوه ولكنه كان قد سبقنا إلى الباب الخارجى وذهب . لم
نلمح منه إلا ظهره المترجرج ، ثم التفاتة سريعة ودعتنا بابتسامة نرويجية
خاطفة . ووقفنا وراء الباب المغلق نتبادل نظرات حائرة .

قَاتِلْ قَدِيمَ

صدرت « يوميات علاء الدين القاهري » فاقتحمت عزلة شيخوختي ، عاصفة بهدونها وانقطاعها عن الحياة العامة . عاد اسمه يطاردني وينكأ جرحا في كبريائي . ويذكرني بفترة الاحترام والتقدير ، وعهد النفور والرفض ، وأخيرا الفشل . وأقتنى الكتاب ، وأنهمك في قراءته ، بدءا من مقدمة ابن أخيه ، فأقف على سر تأخير النشر ربع قرن عقب مصرع الرجل احتراما لوصيته ، وأغوص بين السطور لعل أثر على حل اللغز الذي حيرني ، وينبثق من إحدى اليوميات بصيص نور فأمتلئ بالاستنارة وأنتفض من الدهول ، وأهتف في حجرتي المغلقة :

— كان القتال بين يدي طوال الوقت !

واخترقت الضباب إلى حجرتي في نقطة الشرطة فرأيت رجلا يندفع داخلا مضطربا شاحب الوجه بجسمه الطويل المفتول ويقول لاهثا :

— الأستاذ قتيل في فراشه .

وتفحصته بعين محترفة متسائلا عمن يعنى فقال :

— الأستاذ علاء الدين القاهري .

فأشغل اهتمامي ، وأدركت في الحال أن الروتين سينحرف عن مجراه المؤلف .

— أنا خادمه ، ذهبت إلى بيته صباحا كالعادة ، رأيت باب حجرة نومه مفتوحا فألقيت نظرة فرأيت في فراشه غارقا في دمه .

واستجابة لاستفسار قال :

— أغادر بيته ليلا وأعود إليه في الصباح فأفتح الباب بمفتاح ،

أما المفتاح الآخر ففي حوزة الأستاذ ..

لم أضيع وقتاً أكثر من ذلك فأبلغت المأمور وذهبت إلى بيت الأستاذ بصحبة قوة من الجنود والمخبرين . وفي الطريق غمرتنى ذكريات . ذكرت حماسي لفكره أيام الدراسة الذى زحف عليه الفتور فيما بعد وختم بالرفض . كان أستاذاً جامعياً مرموقاً ، ومؤلف كتب تعتبر المرجع الأول فى الدعوة للحضارة الغربية والنقد المثلث للتراث ، فحظيت بقلة من المعجبين وكثرة من الناقمين . وجرى الزمن وتغير ، فبلغ سن المعاش ، واعتزل فى بيته . واقتصر اتصاله بالناس على استقبال بعض الزملاء من على شاكلته فى الرأى ، وبعض الشباب من المعجبين . وعالى الجو العام من اختناق فى الفكر على المستويين الرسمى والشعبى فلم يعد طبع كتبه ، ولم يتيسر الاطلاع عليها إلا فى دار الكتب وخاصة لأصحاب الرسائل الجامعية . رغم ذلك كله بقى اسمه حقيقة ثقافية ذات وزن ثقيل فى الجيل المخضرم وقلة من الشباب ، فلم تغب عنى خطورة الجريمة وأثرها المنتظر . ودرست موقع البيت من الخارج وسط صف من بيوت مماثلة شيدتها جمعية تعاونية . بيت صغير أنيق أبيض من دور واحد وحديقة صغيرة تعبق برائحة الياسمين . ورأيت الجثة منكفئة على وجهها ، والغطاء منحسر عن نصفها الأعلى ، والدم يغطى مؤخر الرأس والقفا وينداح فوق الحشية والوسادة . غلفه وجه الموت الأخرس المغترب . بهتت صلته ، وتمدد أنفه الكبير الأفتى فى صفحة ضاربة للزرقة غائصة فى اللامبالاة . لا أثر للمقاومة ثمة ، وكل قطعة أثاث مستقرة فى موضعها فى طمأنينة تامة ، وفى الحال لحق بى المأمور ومدير الأمن والنائب العمومى ، وجرى فحص شامل للمسكن ومحتوياته . وبهرنا نظامه الدقيق وترتيبه الحسن فلا يشذ (التنظيم السرى)

شيء عن موضعه . عدا صينية على خوان في حجرة الاستقبال تحوى عددا من أقذاح الشاي في قراراتها شيء من السائل ، ووعاء معدنى مفضض به بقايا من البسكوت المطعم بالشيكولاتة ، ونافضة مليئة بأعقاب السجائر . وصوان الملابس لم يمس ، والساعة والولاعة ، كما عثرنا على مظروف به مائة جنيه . وتبادل حديث أولى بين المسئولين :

— الجريمة لم ترتكب من أجل السرقة .

— احتمال راجح ولكن يقتضى مزيدا من التحرى .

— هناك باب الخصومة والانتقام .

— هل تدخل في هذا الباب الخصومة الفكرية ؟

— لكن الأجيال الجديدة لا تكاد تعرفه — وإن وجب أن يمتد البحث

لكل شيء ..

— والعلاقات الخاصة المجهولة أيضا .

وعرفت القنوات التى ستدقق منها التحريات ، ثم بدأ التحقيق باستجواب الخادم عم عبده مواهب . رجل فى الخمسين ، يعمل طاهيا وشغلا عند الأستاذ منذ عشرين عاما، وهو محور البيت كما يخلق بيت أعزب يعيش وحده. ينتهى عمله عقب تقديم العشاء فى الثامنة ثم يغادر البيت حوالى التاسعة يمضى إلى مسكنه بمصر القديمة ثم يرجع فى الصباح قبل استيقاظ الأستاذ عادة. ويخالف هذا النظام فى الليالى التى يستقبل فيها الأستاذ جماعة من أقرانه أو مريديه من الشبان. فرمما تأخر ميعاد ذهابه إلى منتصف الليل. وبالنسبة لليوم الذى قتل الأستاذ فى ليلته عقب الأستاذ جلسة مع أربعة من الشبان ممن يترددون كثيرا عليه، وهم طلبة دراسات عليا،

معروفون جيداً بالاسم والصورة لدى عم عبده مواهب . غير أن عم عبده شعر بصداق فاستأذن في الانصراف حوالى العاشرة ، ولما رجع صباحاً كالعادة اكتشف الجريمة .

— هل تشك في أحد الزوار الأربعة ؟

— أبدا .. (ثم بتوكيد) أبدا .. أبدا ..

— لماذا ؟

— كانوا يحبونه وكان يعاملهم بعطف الوالد ورعاية الأستاذ ، والعلم عند الله ، والكلمة الأخيرة لك ..

وقلت لنفسى ، أماننا جريمة قتل ، القاتل كان في داخل البيت ، وجدنا مفتاح البيت الخاص بالأستاذ في درج المكتب . وجدنا باب البيت ونوافذه سليمة وكانت النوافذ مغلقة من الداخل . وكخطوة أولى حجزت عم عبده والطلبة الأربعة وانطلقنا في قنوات التحريات .

بحسبنا مصادر الثروة فوضح لنا أنه لا يملك إلا معاشه وحسابه في المصرف المتحصل من فوائد شهادات الاستثمار ، وليس في ميزانه الصر في ما يدل على أنه سحب مبلغاً أكثر من المعتاد صرفه كل شهر لتغطية نفقاته . ولم تدلنا التحريات عن الطلبة وعم عبده مواهب على أى علاقة مريبة أو شبهة من الشبهات ، وفتشت البيوت تفتيشاً دقيقاً ، وكان عم عبده يعيش في مسكن صغير هو وزوجه أما أبنائهم الثلاثة فيعملون في السعودية ، ولما سئلت زوجته عن ميعة عودته ليلة الحادث أجابت بأنها تنام مبكرة ووضع أنه لا فكرة لها دقيقة عن الوقت . وكان بعطفة السد القائم بها مسكنه مقهى عند المنعطف شهد صاحبه بأن عم عبده غشى المقهى ليلتها

كعادته فلم يتناقض ذلك مع أقوال الرجل الذى قال إنه قصد المقهى ليعالج صداعه بالقهوة والأينسون وخلافه ، أما عن الوقت فلم يستطع الرجل أن يحدده لانشغاله المتواصل بعمله . وضحت لنا براءة الطلبة فلم يبق فى يدى إلا عم عبده مواهب . هو الذى يمكنه دخول البيت فى أى وقت ودون عائق ثم يغادره بسلام ، ولكن لماذا يقتل الأستاذ ؟ . والحق — وأقرر ذلك من واقع خبرة ودراسة — أنه رجل ورع طيب مستقيم ، وبعيد أن يكون حزنه على الأستاذ تمثيلاً أو زائفاً ، وبعيد أيضاً أن يوحى وجهه بالجريمة أو الشر ، وغضبت حيال الغموض الجاثم . وتعلق الأمل بالعلاقات الخاصة الخفية . وقلت لعم عبده مواهب :

— حدثنى عن سلوك المرحوم كرجل لم يتزوج قط ؟

فأجاب متجهماً :

— لا أعرف شيئاً .

— تكلم . ألا تريد أن تبرئ نفسك ؟

— لى الله ، لن يأخذنى بجريمة غيرى .

— لكل منا هفواته وعيوبه فحذار أن تدافع عن القاتل بحسن نية !

ولكنه أصر على موقفه . وجاءنى مرشد باللبان الذى شهد بأنه رأى فى بيت الأستاذ فى أثناء ترده عليه امرأة متوسطة العمر على جمال ملحوظ .

وبعد مواجهة بين اللبان وعم عبده قلت للأخير بحزم :

— هات ما عندك عن هذه المرأة .

فقال بقلق :

— ربنا أمر بالستر .
 فقلت بجزم أشد :
 — وأمر بعقاب القاتل . فتكلم لتخلص نفسك من الشبهة المحيطة بك .
 فاعترف قائلاً :
 — هي أرملة على علاقة قديمة بالأستاذ ، تعيش في أسرة فقيرة ولكنها لا
 تتساع فيما يمس العرض ، ولو انكشف سرها لتعرضت للهلاك ..
 ووعدته بأن نستدرجها إلى التحقيق في تكتم . وعرفت ما يلزمى عن
 المرأة ، مسكنها ، أولادها ، أخيها الميكانيكى المعروف بفظاظته ، وعرفت
 أيضاً أن عم عبده كان يسفر أحيانا بين الأستاذ والمرأة على كره شديد منه .
 داخلنى شعور بأن الحقيقة ستقذف إلى بعد تمنعها العسير . ولما رأيت
 المرأة فتر حماسى . وجدت امرأة تكاد من سذاجتها أن تشارف البلاهة .
 وصارحتنى بأنها استسلمت للرجل لشدة حاجتها ولعطفه وكرم
 أخلاقه ، وأن موته سد فى وجهها باب الرجاء . وقالت إنها كانت تزوره
 نهارا تجنباً لإثارة الشبهة عند أحد وخاصة أخيها ، وأنها لم تدخل بيته طوال
 الأسبوعين السابقين للحادث مستشهدة فى ذلك بعم عبده مواهب .
 ورجع الغموض إلى ما كان وربما أشد . ونشط خيالى فى طرح الفروض ،
 فحام حول أخيها الميكانيكى ولكن قطع الشك باليقين عندما أثبتت
 التحريات بأن الشاب كان محبوسا فى قسم الخليفة يوم الجريمة لتورطه فى
 مشاجرة . انتهى . لم يسفر التحقيق ولا التحريات عن شىء ، وقيدت
 الجريمة ضد مجهول . وقلت لنفسى وأنا من القهر فى نهاية :

— هذه الأمور تحدث أيضا !

— ها أنا أعود إلى الجريمة بعد انقضاء خمسة وعشرين عاما على ارتكابها ، وبعد أن تركت الخدمة منذ خمسة أعوام أو يزيد . أعادنى إليها نشر « يوميات علاء الدين القاهرى » . ورحت أقرأ بشغف مدركا الأسباب التى جعلت الأستاذ يوصى بتأخير النشر ربع قرن لتعرضها لأشخاص رأى من المستحسن ألا يهتك الستر عن أفكارهم إلا بعد وفاتهم أو فى الأقل بعد انتهاء خدمتهم الرسمية . وفى إحدى اليوميات قرأت :

« عم عبده مواهب صارحنى برغبته فى ترك خدمتى فأنز عجت جدا لشدة حاجتى إليه خاصة فى هذه المرحلة الحرجة من العمر والوحدة ، ولأمانته واستقامته وطيبة قلبه وتقواه . وقلت له :

— إلى أعاملك كصديق يا عم عبده .

فتمتم :

— لا ينكر النعمة إلا لئيم .

— إذن لا تتركنى ، والعمل على أى حال أفضل من الفراغ .

فغمغم :

— لا حيلة لى يا سيدى .

— بل يوجد سبب ، لا تخف عنى شيئا ..

فصمت مليا ثم قال :

— قلبى يقشعر مما أسمع أحيانا فى مجالس الزوار !

فقلت بدهشة :

— لن يأخذك الله بذنوب غيرك ، لك على أن أسكت الحوار إذا دخلت
الحجرة لخدمة ..

وما زلت به حتى عدل عن رأيه . ولكن يبدو أنه لم يكف عن التصنت
وقد ضبطته مرة لصق الباب وأنا ذاهب لبعض شأني فعاتبته عتابا مرا ،
و ذات يوم وهو يقوم على خدمة إفطاري حانت مني التفاتة إلى مرآة
فلمحت صورته المعكوسة تنطق بالحنق والغضب ، فاعترضتني كتابة
وتساءلت كيف أحتفظ برجل يضمير لي هذا الشعور الأسود ؟ ! » .
وفي مكان آخر من اليوميات وكظرف مشابه قرأت هذه العبارة عن عم
عبد موهب « يجب التخلص منه في أقرب فرصة ، وقد ناقشت مشكلته
في إحدى الجلسات الثقافية فأثنى الزوار عليه وقالوا إنه مثل للاستقامة
والطيبة ولكنني على خبرة بما يمكن أن يصدر عن هذه الأنماط إذا جرحت
ضمائرها ، يجب التخلص منه في أقرب فرصة مهما صادفني من صعوبات
في إحلال آخر محله » .

امتلأت بالاستنارة متأخرا جدا وهتفت :

— كان القاتل بين يدي طوال الوقت !

الآن قد سقطت العقوبة ، واندثر التحقيق ، وتوفي الكبار الذين
باشروا التحقيق أو أشرفوا عليه ، ولعل القاتل قد لحق بهم أو سبقهم إلى
جوار ربه . وأمكنني أخيرا أن أقف على الباعث على الجريمة الذي ضلته
وقتها ، ترى هل مات الرجل أو ما زال حيا ؟ . ولم أستطع مقاومة الرغبة
في السعي وراءه رغم إفلاته القانوني من العقوبة . تمنيت أن أعثر عليه ولو

لأعلن انتصارى العقيم . ولن يتضح عقمه — لجهله غالبا بالقانون — حتى أكاشفه بذلك .

وانتقلت من مصر الجديدة إلى مصر القديمة مدفوعا بحب استطلاع ورغبة متوارية في الانتقام . وجدت عطفة السد كما كانت بيوتها العتيقة والمقهى القائم عند المنعطف لم يكذ يتغير إلا وجه صاحبه . وكان عم عبده انقطع عن زيارة المقهى منذ سنوات فطرقت بابه واقتحمت مسكنه .. استقبلنى بدهشة ، ببصر ضعيف ، ولم يتذكرنى ، وطالبنى بوجه كثير الغضون وسوالف ناصعة البياض كالزغب تبرز من حافة طاوية بيبضاء . قلت له :

— إنك لا تتذكرنى .

فبسط راحته متسائلا فقلت :

— ولكنك لم تنس ولا شك مصرع الأستاذ علاء الدين القاهرى !

فومضت فى سحابة عينه نقطة لامعة وقطب فى حذر .

— أنا ضابط التحقيق ، كلانا تقدم به العمر .

فتحركت شفتاه من همس لم أتبينه ولكنى قرأت فى صفحته أمارات الانسحاق .

وقلت بثقة :

— أخيرا انكشفت الحقيقة وثبت أنك قاتله !

واتسعت عيناه فى ذهول ولكنه خرس فلم ينيس . وقام بجهد وصعوبة ولكنه ما لبث أن انخط فوق الكنية . أسند رأسه إلى الجدار ومد ساقيه وتقلصت عضلات وجهه نافثة زرقة ترابية ، وفتح فاه ، ربما ليقول شيئا

— ١٣٧ —

لم يقله أبدا ، ثم استسلم أمام قوة مجهولة فمال رأسه على كتفه .

وجزعت فهتفت به :

— لا تخف . انقضى زمان الجريمة ، اعتبر حديثي مزاحا ..

ولكنه كان قد أسلم الروح .

* * *

أقدمت على مغامرة لأحقق نصرا عقيما فبُوت بهزيمة جديدة أفقدتني ما

كنت أحظى به من راحة البال . ومن حين لآخر أتساءل في ضيق :

— ألا أعتبر أنا أيضا قاتلا ؟

الْمُحَمَّدِ

رغم عنايتي الملحوظة بنظافة جسدى وصحتى العامة فإن الإحساس
 بالقدارة والمرض يلح على كفكرة ثابتة أو جو ثقيل جامم . لست أقيم فى
 جسد وأطراف فحسب ولكن أيضا فى شقة عتيقة بالية وعطفة هرمة
 تغوص فى النفايات . تعرى السقف من الطلاء وتكشف فى مواضع عن
 عروق لا لون لها ، وتشققت الجدران فى خطوط متوازية ومتقاطعة ،
 وانفجرت الأرضية عن تنوءات وثغرات تلاطم باطن القدم تحت الأكلمة
 المتهرئة . والسقف والجدران تنضح صيفا بالحرارة المحرقة وترشح شتاء
 بالرطوبة أو برشاش المطر . والسلم أخذ فى التآكل ، ودرجة منه تصدعت
 فتهاوى نصفها وأصبحت عثرة فى طريق الصاعد والهابط وخطرا لا يستهان
 به فى ظلمة الليل . هذا بالإضافة إلى الشق الطولى الذى يسوخ فى جناح
 البيت الخارجى الملاصق لدورات المياه ، وهو جناح تقشر ملطه وكلسه
 وبرزت أحجاره . وعطفة الحسنى اختفى طوارها تماما ، ولا أحد يذكر أنه
 كان لها طواران سوى بوصفى من مواليد هذ البيت ، بخلاف أسرقى
 إبراهيم أفندى ساكن الدور الأوسط والشيخ محرم ساكن الدور الأرضى
 اللتين وفدتا إلى البيت منذ عشرين عاما على أكثر تقدير . على أيام صباى
 كان البيت كهلا لا بأس به ، والعطفة ذات أديم مبلط بالأحجار
 وطوارين ، لا تقل فى رونقها عن شارع الشرفا الذى تنحدر إليه . اختفى
 الطواران تحت الأتربة والنفايات ، وهذه تتراكم يوما بعد يوم زاحفة من

الجانبيين نحو وسط الطريق الضيق ، و عما قليل لن يبقى للسكان إلا ممر كالخندق يذهبون منه ويحيثون ، وربما ضاقت حافاته عن أن تسع جسم ست فوزية حرم إبراهيم أفندى . يطبق على وجداني شبح القدم وتوقع الانهيار وتفشى القدارة فيطاردي الإحساس بالمرض . والخوف أيضا . وحيد في شقة تفرق ساكنوها بين البيوت الجديدة والمقابر ، وموظف بالإضافة . موظف وحيد في بيت آيل للسقوط ، يئن في قبضة الغلاء ، يتساءل عن مصيره لو وقع زلزال أو غارة جوية في هذه الأيام المنذرة بالحروب ، أو ماذا يحدث لو استوفى البيت عمره المتهالك فمات حتف أنفه وبلا سبب خارجي . وأعقد العزم على مطاردة الهواجس بنفس القوة التي تطاردني بها ، أن أسلم أمري لله ، ألا أتعجل الهم قبل وقوعه ، أتناسى همومي في المقهى بين الصحاب من الموظفين الكادحين أو بين يسدى التلفزيون ، تلفزيون المقهى . غير أن الهم يرجع كما كثف ما يكون في اليوم الأول من كل شهر . يوم يحسب حسابه الشيخ محرم وممت فوزية التي تنوب عن زوجها في المعاملات لقوة شخصيتها ، كما أحسب حسابه ألف مرة . في هذا اليوم يهل علينا عبد الفتاح أفندى ساعى البريد ومالك البيت القديم . رجل في الخمسين ، ما زال متمسكا بطربوشه ، ثقل الظل ، ربما لا لعب فيه . أنتبه إلى حضوره عندما يترامى إلى صوت ست فوزية وهي تنهزه بخصونة وتلقمه الحجر تلو الحجر . أما أنا فأعجله بالكياسة ما استطعت . أستقبله وأجالسه على كنية وحيدة وأقدم له الشاي . ويطيب له أن يرد التحية فيسألني :

— بودى أن أجيء مرة فأجذك مكملا نصف دينك !

فأسأله وأنا أدارى غصبة :

— ١٤٢ —

— عندك عروس وزيجة بالجمان ؟

فينفخ بخار الشاى ويحسو حسوة ذات فحيح ويهز رأسه دون أن ينبس . وأقدم له الإيجار ، ثلاثة جنيهات ، فيتناولها باسما فى سخرية ، يفندها بين أصابعه ، يقول :

— أقل من ثمن كيلو لحمه ، والاسم مالك بيت ..

ثم يواصل متشجعا بصمتى :

— أموال أيتام يعلم الله .

فأقول :

— مظلومان يتناطحان ، ولكن ما الحيلة ؟ !

— لولا احتلالكم للبيت لبعته بالشىء الفلانى .

ثم بنبرة وعظية :

— وهو آيل للسقوط ، ألم تنذر كم اللجنة ؟

فأتساءل :

— وهل نلقى بأنفسنا إلى الشارع ؟ !

أفتقد دائما الشعور بالاستقرار والأمان كما أفتقد الإحساس بالنظافة والصحة . على ذاك فحالى خير من الآخرين فأنى على الأقل وحيد . عن عجز لا عن رغبة ولكنى وحيد . حبيس كبت ووحدة وبيت آيل للسقوط وعطفة تدفن تحت النفايات . أقوم بالمعجزات لأفوز بلقمة هنية ولو على فترات من الزمن ، وكسوة تستر ماء وجه مدير إدارة فرعية . أحلم بمسكن مما أرى فى إعلانات الجمعيات التعاونية ، وعروس مما أشاهد فى صفحة العرائس الأسبوعية ، أو حتى مثل ست فوزية . أتعزى بقراءة « حلية الأولياء » ، بحياة الأولياء الصالحين الزاهدين المتوكلين الطارحين لهموم الدنيا تحت

أقدامهم واللائذين بطمأنينة خالدة . غير أن خبرا عارضا عن سقوط منزل أو عن إخلاء عمارة بقوة الشرطة عقب تصدع جانب منها ، يهزنى من الأعماق ، يستردنى من فردوس الأولياء ، يملؤنى بالرعب ، أيسن يذهبون ، ماذا يبقى لهم من المتاع ، كيف يتصرفون ؟ . ويتضاعف إحساسى بالوحدة رغم انتمائى إلى أسرة كالعائلة متناثرة فى أنحاء المدينة الكبيرة : إخوة وأخوات وأقارب ووحدة خانقة . العواطف طيبة ولكن لا بيت يرحب بجديد . كل بيت بالكاد يسع سكانه . وكل فرع ينوء بهموه . قد أجد ملاذا ليوم أو أسبوع أما الإقامة الدائمة فهى ورم سرطانى لا يحتمل . وأهرع إلى المقهى فهو جنة المأوى . أجتمع بالزملاء فأستروح العزاء فى تبادل الشكوى . ومن عجب أننى معدود بينهم من المحظوظين لتوحدى وخفة حمولتى . وحدى المرعبة قيصة محسودة . يا بختك لازوجة ولا بنت ولا ولد . لا مشكلة أجيال ولا زواج بنات ولا دروس خصوصية . بوسعك أن تأكل لحمة مرة فى الأسبوع وربما مرتين . مسكنك الوحيد الذى لا يشهد شجارا ولا نقاشا . وأهز رأسى فى رضا ولكنى أتساءل فى باطنى هل نسوا آلام الكبت والوحدة . غير أنى أجد فى أنينهم المتواصل سلوى مثل دفقة ضوء تلقى على قبر . ويقول لى أحدهم مرة :

— عندى حل لكافة مشكلاتك .

فأنظر إليه باهتمام وأنتظر فيقول :

— زيجة ، توفر المسكن واليسر ولا تكلفك مليما واحدا .

ثم فيما يشبه الهمس :

— امرأة تناسب المقام .

وأتحيل في الحال امرأة لا تملك من الأنوثة إلا شهادة السجل المدني . وسيلة شاذة من وسائل الإنقاذ مثل الانحراف والجرائم الخفية ، طوق نجاة مثل جثة طافية . الحق أنني فقدت الأمل ولكنى مازلت محتفظاً بالكبرياء . من أجل ذلك يصفوننى بالطيبة كمرادف للبلاهة . أتصبر وأقاوم . أعود إلى كتاب حلية الأولياء وأقرأ جرائد المعارضة . ربما ألبأ أحياناً إلى حيل الطفيليين ولكنها زلة تغتفر . أزور بيوت الأهل في غير أوقات الغداء إمعاناً في إظهار البراءة على أمل أن أدعى إلى وليمة ، ولكن روح العصر لم تعد تؤمن بهذه التقاليد العريقة . ويختلف الأمر بالنسبة للمواسم والأعياد فيسعدنى الحظ بوليمة أو وليمة في العام . وما أن يتهادى إلى صوت ربة البيت وهى تقول :

— ما أنت بالغريب ولا بالضيف ، اعتبر نفسك في بيتك ..

ما إن تلوح هذه الإشارة الخضراء حتى أنقض على المائدة مثل نسر جائع وكأنما أشهد العشاء الأخير . الأدهى من ذلك كله أنني مواطن عادى ، لا طموح عنده ولا خيال . نلت من التعليم ما يكفى وألحقتنى القوى العاملة بإدارة ما . ما تمنيت بعد ذلك إلا بنتاً طيبة وشقة صغيرة . انقلبت الدنيا لا أدرى كيف وماجت بالعجائب . وتحددت إقامتى في البيت المثاليك . وكلما ارتفع مرتبى انخفض كأنه فوزيرة من فوزير رمضان . ذاب شبابى في التضخم وكل يوم أغالب أمواجاً هادرة تهددى بالغرق . ويقال لى :

— هاجر ففى الأسفار مليون فائدة ..

ولكنى بطيء الحركة ومشدود للأرض ولم أستسلم لقبضة اليأس .
من حين لآخر تومض في سماء المظلمة بارقة . تنعشني تصريحات الوزراء
وطلقات المعارضة ونوادر الأولياء . ألم يكن ابن حنبل يتصدق بالجوائز
السنية وهو يتضور جوعا ؟ . وأتسلى أحيانا في نافذتي وأنا أقرب ست
فوزية وهى تبختر في الخندق بين حافتيه المطبقتين . وذات يوم قررت أن
أزور مدفن الأسرة بعد انقطاع طويل باعتباره الملجأ الأخير إذا وقعت
الواقعة . هناك توجد حجرة الرحمة كما توجد دورة للمياه فهى مأوى من
لا مأوى له .

رأيت القبرين القديمين تحت السماء وشجيرات الصبار في الأركان ،
أما حجرة الرحمة إلى يمين القادم فقد انقلبت خلية نخل تموج بالنساء
والأطفال والأثاث البالى المكوم ومواقد الغاز والحلل وتبقى بروائح الثقيلة
والفول والباذنجان والزيت المقلى . رمقتنى أعين المستوطنين بتوجس
وقرأت في أعماقها نذر التحدى . ابتسمت فى استسلام ووقفت قبالتهم
متحررا من القوة والمجد . وقلت لامرأة ذكرنى حجمها بست فوزية :
— لا بأس ، ولكن ما العمل لو احتجت إلى الحجرة كمأوى ؟

فقال صاحب الحجرة :

— أنت صاحب حق ونحن ضيوفك ، نزل لك عن ركن ، والناس
للناس ..

فقلت ممتنا فى الظاهر :

— جوزيت خيرا ..

ومرقت إلى القبرين لأتلو الفاتحة . تخيلت الأجيال التى لم يبق منها إلا

(التنظيم السرى)

— ١٤٦ —

هياكل عظمية . رعييل من أهل الحرف والتجار والموظفين وستات البيوت
ونخال لم أدرك عصره ولكنى سمعت الرواة يحكون أسطورة استشهاده في
ثورة ١٩١٩ .

وقفت ملياً وأنا أناجيهم بصوت غير مسموع :
— أمدوني يرحمكم الله بإيمانكم ، وهبنى يا خالى شيئا من شجاعتك !

عِنْدَمَا يُأْتِي الرَّخَاءُ

مات الأب ففقد الابن عرشه . ذلك أنه كان وحيد أبويه ، ولى العهد المدلل ، المغموس في نعيم الخنان . ما أن بلغ الحلم حتى زوجه أبوه ليفرح به فأنجب بدوره ابنا وحيدا ، وزوجه في حياة أبيه ليفرح به أيضا . أما الأب المدلل فأفسده الدلع فقعد عن التعليم دون أن يحصل على الابتدائية وأما الحفيد فقد نال التجارة الثانوية بطلوع الروح . وعقب وفاة الأب — الجد — وجد الخليفة الأول نفسه وحيدا عاطلا ، والخليفة الثاني كاتبا على الآلة الكاتبة .

— كان أبى سمسار رزقه موفور ولكن ينفق عن سعة ، عشنا في حياته كالمملوك غير أنه لم يخلف شيئا .
أو ورثته بيتا من ثلاثة أدوار ودكان بالسيدة ، يقيم هو في دور وابنه في دور ويقبض لإيجار الدور الثالث والدكان ستة جنهات كل شهر ، مثل مرتب ابنه . أجل كان المبلغ كافيا لمعيشة أسرة في مطلع القرن ولكنه لا يبيء لها أى لون من ألوان الترفيه المشروع .

— كيف أطيق هذه الحياة أنا ربيب النعيم ، طعامى طعام ولائم ، وملبسى أنموذج للأناقة ، مجلسى في قهوة الشيشة ، ونزهتى عند كشكش بك ومنيرة المهدية ، كيف أطيق هذه الحياة ؟
ويقول له ابنه معاتبا :

— لم عجلت بتزويجي ؟ .. ها أنا أب وأنا دون العشرين ..
فيجيبه متنهدا :

— إنما الأعمال بالنيات يا بني ! ، أنا أيضا وجدتنى زوجا لبنت تكبرنى
بأعوام قبل أن أفرق بين الألف والباء !
وكان المستحق الوحيد لوقف جده للمرحومة أمه فزار لأول مرة إدارة
الأوقاف الأهلية مسوقا بنبضة أمل رغم ما سبق له علمه عن طريق أبيه .
وقال له الموظف المختص :

— ثروتك على الورق ضخمة ، أربع قطع أراضى فضاء بالمنشية ،
ومال بدل ناتج عن دخول قطعة خامسة فى التنظيم مقدارها أربعون ألفا من
الجنهيات ..

فتساءل بصوت متهدج كيف يمكنه الانتفاع بثروته فقال الموظف :
— لا شىء للأسف ، الأرض وقف لا تمس ، والمال وقف لا يمس ،
وهو مودع فى البنك بلا فوائد لأن الفوائد ربا والربا حرام وكل حرام فى
النار .

وهذه النار التى تندلع فى قلبه وآماله ؟ ! . لم يعد له من حديث إلا
الوقف والحرمان . ويطوف بالأراضى الفضاء المطروحة كمخرائب ،
ويسأل عن أجر المثل فيحسب ثمنها بما لا يقل عن ثمانين ألفا من الجنيهات
بالإضافة إلى مال البذل ، وراح يهذى بالثروة والحرمان والفقر والحظ .
وقال له عمه :

— بع بيتك واستثمر ثمنه فى عمل نافع .
ولكنه يقول معترفا بالحقيقة الصخرية :

— ١٥٠ —

— لا أصلح لشيء يا عمى .

ويستطرد باسماء في حياء :

— الله يغفر لك يا أبنى .

والزمن يسترق الخطى ، لا يبال ولا يجهل ، فيتوغل الرجل في الشباب حتى يرق ذروته ويطل على الرجولة دون أدنى رغبة فيها . تتبلور شخصيته بين الأصحاب والأقارب نمطا للإنسان الشاكي الباكي ، مجنون الوقف ومال البذل وأجر المثل . يضحك منه في الخفاء من يشفق من الجهر ، ويعالنه بالسخرية من يضيق به ، ومن وراء وراء يقولون عنه :

— سيجن ذات يوم .

— بل جن فعلا وما كان كان ..

وتغزو مظاهر الحضارة حتى الأحياء الوطنية . وجاوزت السيارات حدود الندرة . وكذلك المطاعم والملاهي . وانطلق الرعيل الأول من الحسان سافرات الوجوه بأعين مكحولة وشفاه مصبوغة . هذا وامرأته منهمكة بين الطهي والغسيل والمكنسة فبرزت الست العاملة وتوارت الأنثى المغرية . وهو خلقه الله جميلا يحب الجمال فتتمر وتوثب للنزاع والنكد . تقول امرأته :

— ما حيلتى ! ، ابتليت به أفطع مما ابتلى هو بالحياة ..

ويقول هو :

— أنا غنى محكوم عليه بالفقر ، والدنيا حلوة ..

ويقول له عمه :

— الدنيا حظوظ ، والله في خلقه شئون ، والسعيد من يمثل لإرادة

الله .

فيقول :

— أنا مظلوم .. مظلوم .. مظلوم ..

— وما الحيلة يا بن أخي ؟

— أحرام أيضا أن أشكو الظلم !؟

فيقول الرجل مداريا ضيقه بابتسامة لا لون لها :

— أليس لكل إنسان همومه ؟ !

وتتوثق العلاقة بينه وبين إدارة الأوقاف . يصبح نجما في سمائها
المنسوجة من خيوط العنكبوت . ويمدون له في جبل الأمل .

— ألا تتابع حملات الجرائد على جمود الوقف ؟

— انتظر خيرا قريبا .

وتتشب الحرب العالمية الثانية ، يتسنم ذروة الرجولة فينحدر نحو
الكهولة ، ويتلقى من الغيب نذرا في صورة شعيرات بيضاء لمعت في
سوالفه وشاربه الذى يعتز به أيما اعتزاز . وتشرب الأسعار برعوسها في
بطء واستمرار فيهتز الباقي من أمنه . على حين تنتشر مظاهر الحضارة
واللهو ، وتتلأأ الشوارع بالسيقان والأذرع والنحور ، ويتدفق المنهل
العذب يدعو الشاربين للورود ، وتسرع زوجته إلى الكهولة والخراب .

— كان في البيت رجل واحد فأمسى فيه اثنان !

وتقول امرأته لجارة لها :

— لو تحققت أمنيته في الصباح لتزوج على قبل مجيء المساء ، لا حقق

الله أمنيته !

— ١٥٢ —

ويقول له ابنه :

— لم تعد الحياة كما كانت ، القروش مثل العصفير سرعان ما تطير ..

ويقول له موظف الوقف الأهلئ :

— لا يمكن مواجهة أعباء الحياة بريع بيتك ، انزل عن كبريائك وحرر

عريضة يطلب شئء من الخيرات ..

وبعد تردد راقته الفكره . ولما لم يكن يحسن الكتابة فقد تولاهاعنه

الرجل . وقال له برجاء :

— ربنا أمر بالستر .

فقال له الموظف :

— شرك فى بئر ..

وتزوره مندوبة الوزارة لإجراء التحريات التقليدية . تتفقد البيت

وأثاثه القديم وهو يتابعها بكآبة . ثم يقول لها بدافع من كبريائه :

— سلى يا ابنتى عن أصلى فى إدارة الأوقاف .

فتقول له بعذوبة :

— أعرف كل شئء ..

وانتبه إلى نضارة وجهها وهندسة جسمها لأول مرة .

سألها فى دعابة :

— ألا تمنح الوزارة بدلا من المرتب أشياء عينية ؟

فتساءلت فى براءة :

— مثل ماذا ؟

فقال ضاحكا :

— ١٥٣ —

- مثلك يا ابنتي !
فودعته ضاحكة . وصرخت زوجته :
— تحت سمعى وبصرى ولا تتورع عن المغازلة ..
فقال بمجدية مصطنعة :
— غازلتها بالأصالة عن نفسى ونيابة عنك أيضا ..
فصاحت :
— ما يؤدبك إلا الفقر .
وتقرر له مرتب من الخيرات مقداره ثلاثة جنيهات شهريا . وسأل
الموظف ممتعضا :
— ثلاثة جنيهات ١٩
فقال الرجل :
— مناسب جدا بالقياس إلى أمثاله .
— لا يساوى ما بذلت من كرامتى ..
— الأسر التى أناخ عليها الدهر أكثر مما تتصور .
على أى حال زار المفتشة فى إدارة التحريات ، فى الظاهر ليشكرها ،
وفى الحقيقة ليمتلئ شبابها ونضارتها . ورجع إلى بيته وفى قلبه حلم . وأنجب
الحلم أحلاما أخرى عن فيلا وسيارة ومائدة . أما الواقع فلم يتمخض إلا
عن غلاء يرتفع ، ومغريات تنتشر ، وشيب يتفشى ، وضغط دم — ذلك
الداء المتوارث فى أسرته — يستقر . وتمزقت روابط الزوجية حتى حل
الكره محل الرحمة . تقول له :
— لا أرى فى وجهك إلا العبوس .

— ١٥٤ —

فيقول :

— حب الحياة ليس جريمة .
— اشكر ربك على الابن والصحة .
— ابني يتأوه وصحتي تلفت .
— إني رفيقة عمرك .
— هذه هي المصيبة .
— تأخذني برتقالة وتعرض عني قشرة .
— بل قشرة من أول يوم .
ورق الابن لأمه فاقترح عليها أن تقيم معه بعض الوقت ولكنها قالت له
معتذرة :

— سيبحث عن خادمة ولا أستبعد أن يتزوجها .
وتتقدم الأيام فيكثر كل شيء سيئ ويقل كل شيء حسن . ويتلقى
الرجل أنباء قيام ثورة يوليو وهو يعاني من أوجاعه فلا يثير اهتمامه أي حدث
عام .

ويتلقى بعد ذلك أنباء حل الوقف وتوزيعه على أصحابه وهو طريق
الفرش بصفة نهائية . ويسرح بصره في الغيب طويلا ، طويلا . طويلا ،
ثم يتمم :

— حكمتك يا رب ..

عِنْدَمَا يُأْتِي الْمُسَاءُ

تنفجر عواصف الخماسين الغبراء الساخنة في عز أيام الربيع . توفيت
الست الكبيرة عن ثمانين عاما مخلقة لا بنتها قبلا بالهرم وبضعة آلاف من
الأموال السائلة . وكانت الابنة الستينية تقضى مع زوجها السبعيني الفترة
المتبقية من العمر يظلهما الوفاق والهدوء واليسر . وحركت الثروة الطارئة
الطموح إلى حياة جديدة ، فقالت الزوجة :

— نستطيع الآن أن نعيش في قبلا جميلة بالهرم ، وأن نغادر هذا
الشارع الكئيب .

فتجلت في عيني الزوج نظرة فاترة وغمغم :

— الهرم ؟

ثم واصل :

— شققتنا مريحة ، عشرة عمر طويل ، بدأ بشهر العسل ، وجميع
المعارف والأحباب حولنا ..

فقالت بازدراء :

— لو تكن جنة لحق لنا أن نملها ..

ولم تأخذ معارضته مأخذ الجد وراحت تفكر بصوت مرتفع :

— القبلا تحتاج لتجديدات بسيطة ، وشيء من الديكورات ، وبها
أثاث يمكن الاحتفاظ به وبيع ما يماثله من أثاثا مثل حجرة السفر

والمطبخ ، ويلزمنا شيء من التنجيد أيضا ، النقود متوفرة والحمد لله ، ومما يزيد من مزايها أنها تقع في شارع داخلي مسفلت ومشجر وهادئ بالقياس إلى الشارع العمومي ..

واعترت الزوج كآبة فراح يفكر بصوت مرتفع أيضا :

— بين الجنانين موقع عتيق حقا ولكن العمارة جديدة نسبيا ، شيدت منذ خمسين عاما ومؤكد أنها تستطيع أن تحافظ على صلاحيتها خمسين عاما جديدة ، الشقة لا ينقصها شيء ، شمسها متوفرة وهواؤها طيب ، وأهم من ذلك كله يوجد حولنا جيران العمر ؛ أنا رجل عجوز ، فراغى طويل ، ولولا بقية من أصدقاء ما تحملت الحياة ، بنتى الوحيدة وزوجها في السعودية ، والأقارب لا يتلاقون في هذا الزمان إلا في الجنازات الهامة ! وحديثه بنظرة أطل منها العناد والتجهم وتساءلت :

— أنضحى بما أتاح الله لنا من عيشة راضية من أجل مزاجك الشخصى ؟
اشتعلت أعصابه سريعة الاشتعال وقال بمرارة :

— عنادك يفترس إنسانيتك ، قدرى حال رجل لم يعد له حظ من الدنيا إلا نفر من الأصدقاء ..

— حسبت أن لك زوجة أيضا !

— طبعا .. طبعا .. ولكن الرجل لا يستغنى عن أصدقاء العمر !

— التلفزيون فيه الكفاية ولكنك مدمن سهر .

— كفى عن العناد وفكرى بإنسانية .

— فكر أنت بشيء من العقل .

في البدء كان الحب . في الشباب الباكر كان الزواج . هو مهندس رى
وهى ست بيت وحاملة للابتدائية أيضا . أنجبا ابنة وحيدة ، طيبة متزوجة
من طبيب ويعملان في السعودية . عبرا سنوات التعارف والتوافق
وعثرات الاختلاف في الذوق والعادات بنجاح حتى استقرا في سكنية
الشيخوخة . رغم ذلك قال لنفسه بقلق « إنها عنيدة وإذا تسلطت عليها
فكرة انقلبت حجرا صليدا لا سبيل إلى التفاهم معه » وقالت لنفسها « إنه
طفل مدلل عصبي ويبيع بالدنيا مزاجه » . وشرعت في تجديد الفيلا
فانقبض صدره وغشيته سحب المخاوف . وقال لها :

— أجريها مفروشة تدر عليك الشيء الفلاى .

ولكنها قالت بإصرار :

— ما حاجتنا إلى النقود في هذه السن ؟ ، ولا ابنتنا في حاجة إليها ،
ولكن من حقنا أن نعم بشيء من الراحة والجمال وحسن الختام .
— وأصحاى ١ ؟ ، تذكرى أزمة المواصلات ، الانتقال معناه العزلة ،
وفي العزلة قضاء على !

— ربنا يكملك بالعقل وسداد الرأى .

لم يعشق هواية مما تثرى الفراغ . ترك لتيار الزمن بلا طوق نجاة .
يستيقظ من نومه حوالى الظهر وينتظر المساء . تدينه صادق وبسيط ولا
يشغل له بالا . يهرع مع الليل إلى منظره صديق على المعاش كان معلم لغة
عربية ، يملك بيتا صغيرا ذا حديقة صغيرة ، ويوافيهما ضابط جيش عجوز
على المعاش أيضا وصيدلى قبطى اعتزل العمل . يتسامرون ، يلعبون
النرد ، يحتسون الشاي أو المرطبات تبعا للفصول ، يدخنون ، ثم يفترقون

عند اقتراب الفجر إلى مساكنهم المتقاربة في بين الجنانين . في الزمان الأول كانت البيوت تطل على الحقول والحدائق وتعبق بشذا الحناء وتخوص في الهدوء . اليوم اكتظت بالبيوت والسكان ، والخرائب الموقوفة التسي انقلبت أسواقا لتجارة الخردة وقطع الغيار القديمة ، وازدحم الطريق بالصبية وصار ناديا أهليا للعب الكرة ، ولكن القلب ما زال يجد سلواه في المناجاة والسمر . ماذا يتبقى له في الحياة إذا حرم من هذه السلوى الباقية ١٩ . وقال لها أخيرا بنبرة حاسمة :

— لن أغادر هذه الشقة إلا إلى القبر .

فقلت بمنق :

— إذا تم إعداد القيللا فلن أبقى هنا لحظة واحدة :

فارتفع صوته وهو يقول :

— أنت امرأة عنيدة بلا قلب .

فهتفت :

— أنت أناني لا يهيك إلا مزاجك .

— لي عليك حق الطاعة .

— الطاعة من حق العاقل .

— قلة أدب .

— أنا بنت ناس علموا الناس الأدب .

— لي الجنة على احتمال عشرتك .

— الحق أني أنا الشهيدة ، لولا صبري لعشت طيلة عمرك وحيدا ..

— أنا ١٩

— ١٦٠ —

— نعم .. آه لو أفرغ قلبي ما فيه !

— جنس جاحد حقيقة .

— أجرى عند الله وحده ، هل نسيت افتتاح سلوكك عام

١٩٢٦

— ١٩٢٦ ، يا أَلطاف الله ! ، إلى لا أتذكر ما يقع بالأمس ..

— ولكنني لا أنسى ، ولا أنسى فجورك وأنت مفتش رى بكفر الشيخ

في ١٩٣٠

— حقا إنك ذاكرة مذهلة لحفظ أنباء السوء وتنسين ما عدا ذلك ،

نسيت على سبيل المثال أنني ضحيت بأجل عروس من أجلك ..

— بل سال لعابك دائما طمعا في مساعدات بابا الله يرحمه ... أنا في

ونفعي !

— قذارة وقلة أدب .

— اخرس !

وانتفض واقفا ووجهه يموج بالغضب فانتصب عنقها في تحد رغم

توقعها عدوانا قياسا على مرات متباعدة لا تستطيع أن تنساها أبدا . غير أنه

كظم غيظه وقال وهو يغادر الحجرة :

— ليكن في علمك أن مغادرة الشقة تعني الطلاق .

فصرخت :

— إلى أرحب به وإن جاء متأخرا .

وعلى أثر رسالتين تلقتهما من الأم والأب حضرت الابنة من السعودية

دون إبطاء . انفردت بالأم محاولة إقناعها ففشلت . ولم تكن أكثر توفيقا

مع أبيها . وجمعت بينهما وقالت :

— من المبكى والمضحك معا أن يجرى للطلاق ذكر بينكما في هذه المرحلة من العمر ، فليغفر الله لكما هذه السقطة اللسانية الشنيعة ..

ونقلت بينهما عينا حزينة وواصلت :

— انتقل يا ماما إلى الفيلا وابق يا بابا في الشقة ، وأجلا قراركما الأخير للزمن والوحدة ..

وشملهم صمت ثقيل خففته بدعابات متكلفة صدرت عن نفس مليئة بالشجن ثم ودعتما راجعة إلى مقر عملها وقد اقتنع كل طرف بأنها منحازة إليه في أعماقها وإن أثبت أن تعلن رأيها مجاملة للطرف الآخر .

ووقع الانفصال ممزقا لأول مرة وحدة حياة مشتركة طويلة العمر .

انتقلت الزوجة لتستقبل حياة أنيقة ثرية مترعة بالوحشة . ولبت الزوج في شقة مقفلة عارية الحجرات إلا حجرة نومه المكونة من فراش مفرد وصوان قديم وكليم صغير ، واقتصر المطبخ على الأوعية والأواني الضرورية وموقد بوتاجاز صغير ومائدة ذات مقعد وحيد وفريجدير لحفظ الطعام . وتم الاتفاق على أن تجهز له طعامه الأسبوعي طاهية الأسرة في يوم معين على أن يقوم هو بإعداد الوجبات وغسل الأواني . وكان ينام نهاره كله هربا من وحدته وينتظر على لطف ميعاد السهرة التي يمارس فيها حياته الحقيقية . وحاول الأصدقاء أن يجدوا للمشكلة حلا آخر ولكنه قال :

— لا تشغلوا بالكم يا جماعة ، المهم أن تسعفنى الصحة حتى النهاية ..

واعترت الزوجة أن كل يوم يفوت من غير أن يقر بخطئه إهانة متجددة لكرامتها وجرحا يغوص في كبريائها . ويشتد حقدھا وغصبھا . وتعالج

(التنظيم السرى)

— ١٦٢ —

الوقت الطويل الملقى عليها بزيارة الأقارب لتشرجه بلا رحمة وفضح ما خفى من مساوئه . ويبلغه ذلك فيرد اللطمة بعشر أمثالها حتى تجسدت حياتهما المشتركة في صورة سوداء تثير الفزع . وجرى الزمن والحصام يزداد سوءا وفضاعة . وانعقدت السهرة ذات ليلة وهو غائب على غير عادة ، ولكنه جاء متأخرا عن مواعده وهم يتجاذبون القلق والظنون . وقال كالمعتذر :

— شعرت بوعكة مما يطرأ في تغير الفصول .
وكانت الوحدة التي يعيش مهملا في طياتها تحزنهم فأقبلوا يناقشونها
بجدية :

— لا تأمن للحاضر وعليك أن تفكر في المستقبل .
فقال بهدوء وهو يدارى ضيقه :
— فعلت ذلك كثيرا !
— وكيف انتهيت ؟
— قررت أن أكف عن التفكير ..
وضحك ثم واصل :
— أعرف ما يقلقكم ، ماذا أفعل لو أقعدنى المرض أو حضرني الموت ! ، سأكون سعيدا إذا قدر لى موت خاطف ، وإن تكن الأخرى
فما جدوى التفكير إلا مكابدة الهم قبل وقوعه ..
— ولكن لكل مشكلة حل .
فهتف :

— فات أوان الوفاق ، ثم إنها عنيدة ، والاستسلام يعنى بالنسبة لى

— ١٦٣ —

انتحارا بطيئا :.

وضحك عاليا وقال :

— إذا حم القضاء وجدني الموت وحيدا لا مفر ، وما عليكم إذا تخلفت
ليلة ولم يفتح بابي إلا أن تتخذوا الإجراءات المألوفة ، وآسف مقدما على
إزعاجكم ..

تَحْتَ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ

حقا إن الشارع خال أو شبه خال فيما يبدو ولكن لا يخلو شارع من آدميين . إنه شارع جانبي يوصل بين طريقين عموميين . وهو سكنى لا توجد به إلا دكان كواء . مع هبوط المساء من فوق رعوس الأشجار على الجانبين أغلقه صاحبه وذهب . سبحت أضواء مصباحين في أول الطريق وآخره في العتمة المتزايدة فأضفت على الجو لونا غامضا بين النور والظلام . واستقرت سيارتان متباعدتان في موقعيهما بجذاء الطوار مسربلتين بغطاءين من الشمع الزمردى ، وانتظرت بقية الفراغات السيارات القادمة . ونحيم على الشارع هدوء خامل جدير بمعبر نادر الرواد وأضاءت نوافذ المساكن بالأنوار وهى مفتوحة لتلقى نسائم الربيع .. من أجل ذلك انتشرت أصوات تلك المشاجرة الزوجية من إحدى النوافذ فبلغت النوافذ القرية وتمادت في ذبوعها حتى كدرت هدوء الشارع . أنت وحش . أنت مجنونة . لن أبقى في هذا البيت ساعة أخرى . مجنونة . في يدى الدليل ، مصيرك المحتوم مستشفى الأمراض العقلية . مصير أملك وأخواتك . تحطمين تحفة ثمنها مائة وخمسون جنيها ! . سأشعل النار في هذا البيت العفن . ويعلو الصراخ مختلطا بصوت هادر ومزيد من طقطقة التحطيم مصحوبة بعويل أطفال . ومر عابر بالشارع فتوقف قليلا تحت النافذة ثم ضحك طويلا وواصل سيره . وتجلت أشباح آدميين في النوافذ

القرية . ولما استمرت المعركة نوقشت على نطاق واسع . خناقة حامية . ليست الأولى . لكنها الأعنف . ألا يمكن عمل شيء ؟ . مثل ماذا ؟ أنتدخل مثلا ؟ . لكننا لا نعرفهم ، نتقابل أحيانا فى مدخل العمارة فلا نتبادل تحية . الواجب . يسوءهم ذلك . لن تنتهى الليلة على خير . ربنا موجود . الرجل مجنون وبريق عينيه المخيف لا ينسى . لا تبالغى هى أيضا لها حركات عصبية مريبة . هو السبب هذا واضح . أو العكس تماما وهو ما أعتقد . لكل رجل شيطانه . ولكل امرأة . الرجال ظالمون بالفطرة . ما هم إلا ضحايا . ضحايا ؟ ! . الله شهيد . معركة غير متكافئة وسيقع أذى لا شك فيه . حطمت فى غضبها تحفة ثمنها مائة وخمسون جنيه . من عذابها أو جنونها . من أدراك أنت ؟ . أهذه حنجرة امرأة عاقلة ؟ ! . أفقدها وعيها . المعركة تشتد ولا أحد يبالى بالأطفال . أمه وأخواته وراء ذلك كله . لا ، المسألة أخطر من ذلك ، فتشى عن الميزانية . يرى كثيرا وهو يشتري الخمر . هى أيضا متبرجة أكثر من اللازم . ألا ترى أن المعركة لا تقف عند حد ؟ . أجل اشتد النزاع وارتفعت الأصوات أكثر وتؤكد أن الليلة لن تمر بسلام . اترك ذراعى يا مجرم . مجنونة لا تحسب حسابا للفضيحة . دعنى أطلب النجدة . إذن أطلب مستشفى الأمراض العقلية . تضربنى ! ، ستدفع ثمن اللطمة غاليا . وينفجر صوات مخيف ثم ينكمص الصوت تحت ضغط راحة يد فيما بدا . ولأول مرة تجيء فترة سكون عدا عويل الأطفال تمتد دقائق وإذا بالصوت يهبط إلى الشارع . شبح المرأة يغادر باب العمارة مهرولا نحو الطوار الآخر . تتبعها الأعين على ضوء المصباح البعيد . هربت من البيت . لعله الحل الوحيد . بملايس

البيت وغالبا لا تملك مليما . ترى أين يقيم أهلها ؟ . هل نتركها في الطريق ؟ . لو آويناها لوجدنا أنفسنا طرفا في المعركة . كيف تتصرف المسكينة ؟ . تستقل تاكسى وهناك ستجد من يؤدي عنها الأجرة ، لم يتحرك أحد لنجبتها . مرة رجل تدخل بحسن نية فاتهمه الزوج ووقع في مصيبة . يالها من دنيا مخيفة . ما باليد حيلة . وقبل أن تبلغ المرأة منتصف الشارع اندفع شبح الزوج من باب العمارة فاشتعل الاهتمام لأقصى حد . جرى نحو المرأة حتى أمسك بها . تراءت وهى تقاومه وتراءى وهو يجذبها بشدة . صرخت مستغيثة بالناس فاشتد في جذبها ، وبلغ الصراع أعنف أحواله . ويمر عابر جديد للشارع فيقف على مبعدة ويهتف :

— كفى هذا لا يليق .

فصاح به الزوج :

— ابعد وإلا حطمت رأسك .

يبتعد الرجل خطوات ، يتردد قليلا ثم يمضى في طريقه . وتنطلق من

حنجرة الزوج صرخة كالعواء :

— تعطينى يا كلبة .. سأقتلك .

ويركلها ركلة حانقة غاضبة متأججة بالرغبة في الانتقام فتقع المرأة

متلوية صارخة . ولم يقنع الرجل بذلك فما زال ألمه الحاد يستفزه إلى المزيد

فعدا نحو العمارة صائحا :

— سأذبحك عليك اللعنة ، وعلى الدنيا ألف لعنة .

وسرى الرعب في المطلقين من النوافذ . ركلها ركلة قاتلة . ولكنه جن

وسيرجع بسكين يجهز بها عليها . لا ، مجرد كلام . نطلب النجدة .

سنصبح أسرى إجراءات معقدة حتى يصدر الحكم . لا بد من طلب النجدة . سيصدق علينا المثل القائل خيرا تفعل شرا تلقى . هل نتركها ملقاة حتى تذهب ؟ . لن يحدث شيء ، هي عضته وهو ركلها وانتهى الأمر . نذهب إليها فقد تكون في حاجة إلى إسعاف . ليس الآن فقد يرجع المجنون ! . وأصر رجل في العمارة المقابلة على الطوار الآخر على طلب النجدة . وطلبها بالفعل وحثها على الإسراع وسئل عن اسمه ورقم تليفونه ، وهمس لزوجته بذلك فحذرت العواقب فأغلق السكة . أما الزوجة فمضت تزحف على أربع وتتن وتستغيث وقد بح صوتها . وهرع نحوها عابر جديد فأنحنى فوقها وحاول مساعدتها على القيام وهو يتساءل عما حل بها . وعند ذاك ظهر الزوج مرة أخرى وانقض نحو المرأة رافعا يده بالسكين . رآه الرجل الذى خف لمساعدة الزوجة ففزع من منظره وفزع أكثر لما رأى السكين في يده . تراجع مهرولا وهو يهتف :

— اجعل .. ستلقى بنفسك إلى الهلاك .

ولكن الجنون كان قد تسلط تماما على وعى الزوج وأصدر قراره بالخراب الشامل . هوت يده بالسكين فى الرقبة فغاصت فيها حتى مقبضها منتزعة صرخة غليظة يائسة ذات نبرة عدمية ، مصحوبة بحركة عنيفة نهائية لا أمل بعدها . ورغم أنه كان يلهث إلا أنه وقف فى غاية من الهدوء والاستسلام والبلادة والزهد ملقيا بكل شيء وراء ظهره . صوتت امرأة فى النافذة . سقطت أخرى مغمى عليها . اشتدت توتر الأعصاب . لا بد من الاتصال بالنجدة . ما الفائدة ؟ ستجىء عاجلا أو آجلا . لعله ما زال يوجد أمل فى إنقاذها . هيات ! إنهم يحققون مع الشهود كما لو كانوا

— ١٧٠ —

متهمين . وربما وجدت نفسك متورطا في خطأ لا يفتن إليه إلا رجال القانون، مهما يكن من أمر فعلينا أن نعترف بأن موقفنا شاذ وأنه لا يصدق عندى أمثلة بالعشرات تشهد بحماقة من يحشرون أنفسهم في مثل هذا الأمر . الحق أننا أخطأنا ولا عذر لنا . ما جدوى الكلام ، ضاعت الست . وضاع الرجل . وضاع الأطفال . وربما لم نعرف بعد ذلك كله من الاستجواب . وقد حصل فتحققت مخاوفهم . وأدلى كل بشهادته منتحلا لنفسه شتى المعاذير ، فمن كان يظن أن خلافا زوجيا يفضى إلى تلك النهاية ؟ ، ومن يجرؤ على التعرض لقاتل تلبسته حال جنونية ؟ ، وكلهم أنكروا واقعة الاتصال بالنجدة ، وأكثر من واحد قال إنه القدر وأن الحذر لا ينجى من القدر .

ويحكى الضابط الحادثة في مجالسه ويقول بمرارة :
— كان من الممكن إنقاذ المرأة والرجل ولكن ذلك ما حدث دون
زيادة !

آخِرُ الْهَيْلِ

غادر الجحيم عند منتصف الليل . جميع أنوار الشارع المستقيم والشوارع المتقاطعة تنصهر في باطنه ، تنفجر في نافورة من الأضواء المتضاربة ، وأعلى العماير يتراقص . لا ملمح هداية يستدل به في خط سيره ، ولا علامة يسترشد بها ، فر الجميع وتلاشوا . السيارات تقل بعض الشيء ، الآدميون لا ينتهون . يترك نفسه لقدميه ، كما اعتاد أن يعتمد عليهما في الملمات ، ومن تقده قدماه فلا يضل . ثمّة قصة عن حمار مرموق ولكن ما هي ؟ . ها هو رجل قادم من الناحية الأخرى ، سيرتطم به إذا سار في خط مستقيم . لكن القادم ينتبه إليه ، ينحرف ، لا شبرا أو شبرين ، ولكن إلى وسط الشارع كأنما يهرب . الجبان . تضاعف شعوره بقوة الكامنة ودار رأسه تيه . ولم يعد يقلق لنسيان قصة الحمار المرموق . واصل سيره يخوض الليل والأنوار ، يعرض عن أبواب المحال المغلقة ، ويتجاهل المارة . ووجد نفسه أمام مطعم « الرائد » فانطلق داخله حتى وقف أمام طاولة صاحبه الذي رمقه بنظرة حذرة :

— الدنيا صغيرة رغم ما يقال عنها ، أنا قادم إليك من آخر الدنيا .

فهز الرجل رأسه متعجبا :

— لن أوصيك فلس في حاجة إلى توصية ، وأنت العليم بالزبائن ، وعارف طلبى ، تشكيلة محترمة من الكباب والكفتة والطرب مع كافة

— ١٧٣ —

السلطات والمخللات ، سخن العيش ، ولا تنس الحلوى . هل يطول
الانتظار ؟

فقال المعلم :

— بل نرسلها إلى البيت كالعادة .

— تشكر .

ودس يده في جيبه ولكن الآخر عاجله قائلا :

— سنرسل الفاتورة مع الطعام .

فرفع يده تحية ثم ذهب . رجع إلى خوض الليل والأنوار وتجاهل
المارة . وعاد يحاول تذكر قصة الحمار المرموق . حتى وجد نفسه أمام محل
« الكبير » الحلواني المعروف ، فاندفع حتى وقف أمام صاحبه :

— الدنيا صغيرة رغم ما يقال عنها .

فقال الرجل باسم :

— وأنت قادم من آخر الدنيا .

— عمرك أطول من عمري .

— أعرف المطلوب ، تشكيلة من البسبوسة والكنافة والبقلادة
بأنواعها المختلفة .

— كبير ابن كبير .

— وستسبقك إلى البيت مع الفاتورة .

فرفع يديه شكرًا ومضى إلى العالم الآخذ في النعاس . واقتحمته ذكرى
عزيزة جدا . ذكرى ذلك الرجل الذي صاحبه يوما مثل ظله . شد ما
يستحق الرثاء بحكاياته الغريبة . وخلق به أن يقول له شد حيلك واضرب

الدنيا بالمركب فهي دنيا لا تستأهل إلا ضرب النعال . هو ثالث ثلاثة
أشقاء وأصغرهم . نعم أصغرهم يا عزيزى فاشترك الآخران فى تدليك
فترة من الزمن ولو على سبيل المجارة ومدارة الغيرة المتأصلة . وشاء الحظ
وهو كل شئ فى الدنيا أن يوفقا فى المدارس فبصير الأكبر وكيل وزارة
للمالية والأوسط كبير مفتشى الرى ، على حين أبى الحظ أن تحظى بأى
قدر من التوفيق ، فحتى الخط لم تفكه . ولكن ما قيمة ذلك لشخص قدر
له أن يملك بالورثة مائة فدان ؟ ! . وملكتها يا عزيزى ، ورحت تستمتع
بها ، وتغدق فى الوقت نفسه على مساكين الأصدقاء وما أكثرهم ،
فانهالت عليك الاتهامات لا أول لها ولا آخر ، ورميت فيما رميت به
بانفسه ، واستصدروا عليك حكما بالحجر . سرقوك الشياطين . وقرروا
عليك الرزق حتى انسدت فى وجهك الطرق ، ولم يكن عجيبا بعد ذلك
أن تقسم لتجلبن عليهم الفضيحة والعار .

ووجد نفسه أمام حانة إيدىال .

هش وبش واقتحم ستارها المسدل ذا الخيوط الخرزية البيضاء . رأى
الفرسان فى الركن الأيمن حول الكئوس . وجها لحظة وهم ينظرون .
فقال ليذهب عنهم الروعة :

— لا ترتاعوا .. أخوكم من طين مثلكم !

فعلبهم الضحك وقال أحدهم :

— نقدم لك كأسا ؟

فقال باستعلاء :

— لاأسمح لقذارة بالدخول فى معدتى ، ولكنى سأهنتك قريبا بوكالة

— ١٧٥ —

الوزارة !

— ربنا يسمع منك !

وسأله آخر :

— أصبح ما يقال ؟

— وما هو ؟

— أنه عرضت عليك وزارة الصناعة فرفضتها ؟

فقال بإباء :

— لست ممن يبيعون أنفسهم عند أول طلب !

— حتما ستقبلها في ظروف أفضل ؟

— وعند ذاك تنهأ البلد قبل أن أهناأ أنا .

— رجل ولا كل الرجال ..

— أنعم مدعوون عندي لقضاء سهرة رأس السنة .

— وستكون ليلة ولا كل الليالي .

وغادر الحانة إلى عالم التيه . ومرة أخرى ذكر الرجل الذى صاحبه يوما مثل ظله . من الجحود ألا يزوره ليعزيه بكلمتين . إن موقفك يوم عزمت على أن تلتطخ غرورهم بالعار موقف لا ينسى . خلعت البدلة يا بطل واستبدلت بها جلبابا أزرق . واقتنيت عربة يد وسرحت ببطيخ في مجاهم الحيوى وعلى مرأى من الذهاب والجائى . وارتعدت منهم المفاصل وساقوا عليك الأهل والأصدقاء ولكنك صمدت صمود الأبطال . واضطروا في النهاية أن يتجاهلوك متظاهرين باللامبالاة فتباديت في التحدى ، وقضيت لياليك في غرز عرب الحمدي . يا فارس الفرسان

وضارب الدنيا بنعلك . وحتى يتاح لى لقاءك تقبل على البعد إعجابى
وتقديرى . أما أنت يا نوسة ، يا سليلة الشرف ، وكنز الجمال والفتنة فحسبنا
تعذيبا لأنفسنا . الدلال له حد أو هذا ما ينبغي له . اخترتك من بين آلاف
من كرميات الأسر العريقة . ولم أخترك للأسباب التى يجرى وراءها
الجنشعون ، لا لأصلك الطيب ، أو أخلاقك الكريمة ، أو تعلميك الراقى ،
ولكننى اخترتك من أجل الحقيقة السافرة ، عينيك اللوزيتين السوداوين
بكحلهما الرابى ، وصدرك الملهم ، وخلفيتك التى تجل عن الوصف .
ما يجوز أن نفترق بعد اليوم دقيقة واحدة يا زينة نساء الأرض . ضاع منا
وقت طويل بلا طائل ، وضياعه كفر بالنعمة ، إلى قادم يا نوسة ، فارجمى
إلى قسمتك ونصيبك فإن جميع طلباتك مستجابة . سر المأساة كلها فى
كلمة أننى ولدت فى عصر يتشرد فيه الملوك فى بلاد الغرب ، كالتسولين
بعد أن خلفوا عروشهم وزاءهم بيد السوق ، ثم إنهم بعد ذلك لا يأمنون
الغدر ولا ينجون من المؤامرات . بذلك تنبأ قارىء الكف ولكننى لم آخذه
مأخذ الجد فى وقته ، وتركت الزمن يجرى كيف شاء حتى استحکم
الحصار .

وقادته قدماءه فى تجواله إلى البنك الأهلى الغارق فى نومه مسدل
الأجفان . لعله من الحكمة أن يسحب من حسابه بعض المال ليواجه نفقاته
الكثيرة ولكنه لا يستطيع أن ينتظر حتى الصباح . وخيل إليه أنه أصبح على
حال تمكنه من الاهتمام إلى منزله العامر ، وأن هيئة الأشياء آخذة فى التغير
رويدا رويدا ، وأن رأسه يتغير أيضا . حتى المشى لم يعد مستساغا إلى غير
ما نهاية وأن جسمه يطالب بحظه من الراحة . ألعن الساعات ساعة

تعرف فيها من تكون وكم يتبقى من الزمن ، وتعرف أيضاً أن الوقت صيف وأن الجو عدو الإنسان ، وأنه يرغم على التسليم دون شرط . ها هو النيل يجري في حال من الكآبة والاستسلام بعد أن كبل بالأغلال وأذعن لمشية البشر . وتحت الكوبرى توجد أريكة من الصوان خالية لم يشغلها صعلوك من صعاليك الليل بعد . تحسسها براحتة ، ومضى إلى شاطئ النيل فعبر الحاجز الحجري ثم انحدر نحو الماء . خلع جلبابه مبهم اللون وعلقه بفرع شجرة فبدا عارياً كما ولدته أمه . وراح يغوص في الماء حتى غمر صدره ليزيل عن جسده الحرارة والعرق في تلك الساعة من الليل . وغنى بصوت كالخوار « البحر يضحك لي » ، وغسل وجهه ورأسه الأصلع ثم صعد راجعاً إلى الطوار آخذاً جلبابه بيده . وانتظر حتى جف جلده وارتدى الجلباب ، واستلقى فوق الأريكة . وما لبث أن تلاشى في الغيب فتصاعد شخيرته مثل نقيق الضفدع ..

الْقَتْلُ وَالضَّحْيُ

م أكثر الراحلين . أدهش وأتخبر كلما طافت أشباحهم بذاكرتي .
أسباب متنوعة . متضاربة . وأحيانا متناقضة ، ولكنها تفضي إلى نهاية
واحدة . ويطاردني حلم ثابت . يلح على في أوقات الفراغ وما أطولها .
حلم خليق بصاحب ثأر تخلص عن إنجاز مهمته . وهو لا يفارقني حتى في
ذلك البيت الخلو الذي صادفته ذات يوم ناشدا النسيان ساعة أو بعض
ساعة . أجلس إلى جانب المعلمة المتربعة فوق كنية تركية مثل قاعدة
تمثال — ضمن زوار — وأتفحص بعناية المكان ومعرضاته . أتصفح
الوجوه البيضاء والسمراء والسوداء ، البدنية والملفوفة والنحيلة ، وهن
جميعا على أتم الاستعداد . على مألوف التقاليد بتقديم الشراب فتشه المعلمة
وتثنى على الأصل الطيب قائلة إن جل زبائنها يجيئون عادة من بين الصفوة .
والشهادة لله أن المكان أنيق والأثاث كريم والنظافة متأقفة ورائحة البخور
مخدرة مقدسة . أما السيدة اللحيمة فتباهي قبل كل شيء بالأمن والأمان .
وأظلني الحلم القديم بجناح يقطر دما ، وبهمسات داعية للخير والفلاح .
ووقع الاختيار على بيضاء نحيلة لا حول لها فقلت للمعلمة « الحمراء » ،
أي ذات الفستان الأحمر : سرعان ما صرنا وحدنا في الحجرة الصغيرة
الكاملة فراحت تتجرد من فستانها وقمصنها وتستلقي في تسليم وسلامة .
اقتربت من الفراش بكامل ملابسي يقودني الحلم القديم . أعابث الخد

والعنق وأغوص في اللحظة الحاسمة . وبسرعة أطوق العنق الرقيق الطويل بقبضتي وأشد عليه بكل ما أوتيت من قوة . غير متأثر بمقاومة يديها وعنف ركلات قدميها في الهواء واستغاثة عينيها الجاحظتين اليائسة الملهوفة على النجاة . ولم أفك قبضتي حتى سكن كل شيء سكون الموت . وأقف وأنظر وقلبي يلهث في دقائق متتابعة . وأرى الموت وهو يضع قناعه فوق الوجود المتهالك ويرسم على صفحته النائية آى البعد واللامبالاة . وأفكر في النجاة مؤجلا ما عداه . دون عجلة كيلا أثير التساؤل . ونظرت إلى نفسي في مرآة صغيرة في موضع عاكس للفراش والجنة . وأجهضت قشغرية اقتحمتني بقوة غير حميدة . وقلت لنفسي معزيا ومشجعاً « أديت ما كان على أن أؤديه » . ها أنا أمضى نحو الباب . أفتحه ، أتركه مواربا زيادة في إبعاد الشبهات ، وأسير متمهلاً نحو الباب الخارجى متجاهلاً المكان والحاضرين . وعندما أنتهى إلى الطريق النائم في ليل الصيف أحث الخطى مدفوعاً برغبة طارئة في الهرب نحو الشارع الرئيسى . وأبلغ بنسيون ليدا وسط المدينة في الهزيع الأخير من الليل . أتناول حبة منوم لا أتعامل معه عادة إلا عند الشدائد . صحوت من نومى قبيل الظهر مشتعلاً الرأس بالكسل والذكريات . طلبت الإفطار ولكنى حسوت الشاى وحده وأنا أقول لنفسي أنت من الآن فصاعداً قاتل جارى البحث عنه . ترى هل أحل مشكلتى بقوة الإرادة أو أننى أسير من سيئ إلى أسوأ ؟ . وماذا عن حياتى الجديرة بالتأمل في هذه الساعة الفاصلة الدامية ؟ . فرد أعد للخيال ولكنه يتعيش من السمسرة ، معارفه بلا حصر ولا صديق له ، يمقت فكرة الزواج والإنجاب . وذهبت إلى البلفدير

بالهرم لأنفرد بنفسى وأفكر . جو لطيف فى أواخر الربيع والحلوس يحلو فى حديقة النخول وأصص القرنفل . غالبا لم يعرفنى أحد من الزبائن المعدودين . هناك لا يسأل أحد عن هويته ولكن حتما يستحضر التهمة فى جريمة يود الجميع أن تندثر وتختفى . أرفع قدح البيرة وأتمخيل ما حدث . المعلمة تتساءل عما آخر البنت عن الرجوع إلى الصالة . ترسل فى طلبها . إما تفضح صرخة فزع الجريمة وإما يحبس الفزع فى الصدور ويدفن السر فى بحر . فى الحال الأولى ينفض السامر فى عجلة ولهوجة ويفر كل إلى حال سبيلة . فى الحال الثانية يتواصل العمل فى أمان . وفى الحالين تفكر المعلمة كيف تخفى الجثة وتحمى نفسها وعملها من قبضة القانون . الجميع الآن يعملون على طمس أى أثر يمكن أن يؤدى إلى ، يتمنون لى السلامة ضمنا لسلامتهم وسمعتهم . أستطيع أن أهدهم وهم لا يستطيعون . لكن هل تنجح المعلمة فى إخفاء معالم الجريمة ؟ . ألا ينسرب إليها الخطر من منفذ لم يجرح لحذرها فى خاطر ؟ . تناولت غداى فى البلقدير مع مزيد من البيرة والنشوة . وعند هبوط العتمة مضيت فى تساكسى إلى الشارع . وتفحصت البيت وأنا أمر به . وجدته مسربلا فى هدوئه ورأيت النور يشع ن نافذتين ، وكأنا يواصل تقديم خدماته اليومية . ولم يكدر صفوى فى الليلة التالية إلا أننى رأيت فى نومى استغاثة الفتاة البائسة وهى تغوص فى لانكسار بين قبضتى . ولكن ذلك كان أهون ما توقعت . وتساءلت عن ستقرها الأخير ، أياكون قعر النيل أم مفازة فى الصحراء ، أم مدفنا فى باطن حديقة البيت الخلفية ؟ . سيشترك الجميع فى جريمة الإخفاء بدافع الرغبة فى النجاة والدفاع عن لقمة العيش ، وأقطع من ذلك ينسى فى وقت

أقصر من ذلك . وأتصفح الجرائد بعناية دون العثور على ما يكدر
الطمأنينة . رغم ذلك لم يغب عن وجداني ما حصل دقيقة واحدة . إنه
حتى بكل تفاصيله هناك . وهو يزعجني أيما إزعاج . ولذلك تخطر لي
أفكار جنونية لا بهدف التنفيذ ولكن حبا في استعراضها ليس إلا ، كأن
أبعث برسالة من مجهول إلى قسم الشرطة . ولكنني وجدت وسيلة للترويج
عن النفس مأمونة العواقب في مقهى « العائلات » حيث تجمعنى الأماسى
بعض الصحاب . رويت لهم تفاصيل الجريمة باعتبارها من بنات الخيال
واستطلعت تصوراتهم عما يمكن أن يحدث . أجمعوا على أن مصلحة
الجميع تقتضى إخفاء آثارها ، غير أن أحدهم قال :

— ويعثر على الجثة ولو بعد حين ، وربما بمصادفة لا تجرى على بال ، ثم
ينتزع القاتل من مكمنه الآمن ..

ضايقتنى ذلك بطبيعة الحال . وخفت أن يتلاشى الأمل — بارتكاب
الجريمة — في حياة أشد معاناة . وما الحيلة وكلما نظر نحوى رجل توهمت
أنه كان هنالك تلك الليلة ؟ . أو كلما سمعت وقع قدم ورأى تصورت أن
أحدهم يتبعنى ؟ ١ ؟ . وضاعف صاحبي من كرى عندما قال لى :

— أتذكر جريمته الخيالية ؟ .. حكيتها لصديق مخرج تلفزيون
فأثارت خياله وقرر أن يجعل منها نواة فيلمه القادم .

ضايقتنى ذلك ، وآيسنى بصفة قاطعة من النسيان .

وضايقتنى أكثر أن جاء المخرج مع صاحبي ذات مساء للمناقشة . قال :

— أنت صاحب الفكرة وتستحق مكافأة رمزية ، هل تستطيع أن

تصيغها في قصة ؟

— ١٨٤ —

فحركت رأسي نفيا فقال :

— طبعا هي بصورتها الراهنة مستحيلة .

— مستحيلة ؟ !

— لا بد من باعث على الجريمة ، الحب والخيانة مثلا ، أو يكون القاتل

مهزوز العقل فيتصور أنه يقتل امرأة من هذا النوع فهو يحارب الرذيلة
مثلا ..

فندت عن منكمبي حركة استهانة فقال :

— لا جريمة بلا باعث ، ولا بد أن ينال القاتل جزاءه أيضا .

فقلت وأنا أدارى غيظي :

— هذا قانون الجرائم الخيالية ، أعني الروائية .

— العمل يجب أن يكون معقولا وأخلاقيا .

فندت عن منكمبي حركة الاستهانة فقال ضاحكا :

— يبدو أنك لا تصلح أن تكون مؤلفا .

فقلت ساخرا :

— ولكنني أصلح أن أكون قاتلا ..

فقهقه ضاحكا ، ونفّس في وجهي بمودة وقال :

— على كل حال فالفكرة تعد بقصة جيدة إذا اهتمدنا إلى باعث مثير

ومقنع واقترحنا خطة محكمة للكشف عن الجثة والقبض على القاتل .

فتساءلت بكآبة باطنة :

— مثل ماذا ؟

— الخطة المحكمة لا ترتجل ولكنها تسبق بتأمل وتفكير ومراجعة الأفلام

المشابهة ، غير أنه على سبيل المثال يمكن أن نتصور للضحية عاشقا مخلصا يحفره اختفاؤها للعمل ، أو أن تكتشف الجثة بالمصادفة عن طريق بستانى الحديقة أو صياد فى النيل ، الفروض هنا لا حصر لها .

انتهت المناقشة وانتهى اللقاء فسقطت فى دوامة الظنون . وغلبنى ميل جامع لملاحظة الناس والأشياء . أسير متمهلا رغم الزحام أو أجلس قريبا من الطريق لأتصفح الوجوه والحركات ووسائل المواصلات والسلع وواجهات المحال والمباني . أتصفحها بعناية عالم مكلف بوصفها وتحليلها .

ووجدتنى وجها لوجه مع المعلمة فى بقالة السعادة بشارع البستان . رغم السيادة والخبرة والدهاء شحب لونها وانهمزت أمام خوف جاثم . تجاهلتنى فخاها الاضطراب غير أنه لم يلمس هزيمتها سوى . ولما انتهينا من التسويق وقفنا أمام الدكان متقاربين فقالت همسا :

— ها أنت حقيقة لا خيال .

نظرت نحوها كالمنكر فتساءلت :

— لم فعلت فعلتك المنكرة ؟

تساءلت كالدهش :

— حضرتك تكلميننى ؟

فمضت عنى وهى تقول :

— منك لله !

كدت أضحك ، وغمرنى إحساس بالأمان ، بل فكرت فى تكرار التجربة فى بيت جديد . غير أنه كان إحساسا عابرا . وارتددت إلى

الملاحظة والغوص في صميم الأشياء . وفي أوقات الفراغ أتذكر قول المخرج «الفروض لا حصر لها» . هذه هي الحقيقة الغائبة عن ملاحظتي ، ولكنها تتضارب في عقل أو أكثر ليل نهار . يوجد فاعل أصلى هو أنا ، وشركاء هم المعلمة ومن ساعدها على إخفاء الجريمة وتوجد الضحية أيضا . لا يمكن أن تبقى هذه الأشياء مبعثرة إلى الأبد . وغير محتمل أن أظل منفردا بنفسى بلا نهاية . وقمت بزيارة غير متوقعة للمخرج في مكتبه . استقبلني بابتسامة عريضة قائلا :

— حلت المشكلات كلها تقريبا .. فأعلنت رضاي متمتا :

— مبارك !

— وجدنا الخطة المحكمة ، اكتشفت الجثة وقبض على المعلمة ، وقرأ القاتل قصته خيرا في الجرائد فقرر الانتحار ، ترى مارأيك في أفضل وسيلة للانتحار ؟

فاقشعر بدنى وتساءلت :

— ماذا تقصد ؟

— نحن أمام عدة اختيارات ، ضع نفسك في مكانه فماذا كنت تختار ؟

فازدردت ريقى وقلت :

— أخفها ألما !

فقال ضاحكا :

— أنت تفكر في نفسك ولكني أفكر في أمرين ، أولا أشدهما تأثيرا في

الجمهور ، وثانيا أصلحهما من الناحية الجمالية للكاميرا !

وقلت لنفسى : ياله من رجل سعيد !

الفهرست

صفحة	
٥	التنظيم السرى
٣١	ممر البستان
٤٣	البستانى
٥٣	النسيان
٥٩	صاحبة العصمة
٦٧	فى أثر السيدة الجميلة
٧٧	السيد «س»
٨٩	شارع ألف صنف
٩٧	المسخ والوحش
١٠٧	البقاء للأصلح
١١٧	الفأر النرويجى
١٢٧	قاتل قديم
١٣٩	الخندق

— ١٨٨ —

١٤٧ عندما يأتى الرخاء
١٥٥ عندما يأتى المساء
١٦٥ تحت السمع والبصر
١٧١ آخر الليل
١٧٩ القتل والضحك

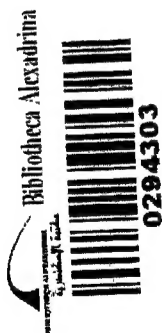
مؤلفات الأستاذ نجيب محفوظ

اسم الكتاب	تاريخ اول طبعة	تاريخ آخر طبعة
مصر القديمة	١٩٣٢	
همس الجنون	١٩٣٨	مجموعة
عبث الاقدار	١٩٣٩	رواية تاريخية
رادوبيس	١٩٤٣	رواية تاريخية
كفاح طبية	١٩٤٤	رواية تاريخية
القاهرة الجديدة	١٩٤٥	رواية
خان الخليلي	١٩٤٦	رواية
زقاق المدق	١٩٤٧	رواية
السراب	١٩٤٨	رواية
بداية ونهاية	١٩٤٩	رواية
بين القصرين	١٩٥٦	رواية
قصر الشوق	١٩٥٧	رواية
السكرية	١٩٥٧	رواية
الرص والكلاب	١٩٦١	رواية
السمان والخريف	١٩٦٢	رواية
دنيا الله	١٩٦٢	مجموعة
الطريق	١٩٦٤	رواية
بيت سيء السمعة	١٩٦٥	مجموعة
الشحاذ	١٩٦٥	رواية
ثوثة فوق النيل	١٩٦٦	رواية
ممرامر	١٩٦٧	رواية
خمارة القط الاسود	١٩٦٩	مجموعة
تحت المظلة	١٩٦٩	مجموعة
		العاشرة
		العاشرة
		العاشرة
		العاشرة
		الثانية عشرة
		العاشرة
		العاشرة
		الثانية عشرة
		الرابعة عشرة
		الثانية عشرة
		الثانية عشرة
		الحادية عشرة
		التاسعة
		الثامنة
		الخامسة
		الثامنة
		السابعة
		السابعة
		السادسة
		الخامسة
		السابعة
		السادسة

اسم الكتاب	تاريخ أول طبعة	تاريخ آخر طبعة
حكاية بلا بداية ولا نهاية	١٩٧١	السابعة ١٩٨٧
شهر العسل	١٩٧١	السادسة ١٩٨٢
المرايا	١٩٧٢	الخامسة ١٩٨٠
الحب تحت المطر	١٩٧٣	الرابعة ١٩٨٠
الجريمة	١٩٧٣	الخامسة ١٩٨٤
الكرنك	١٩٧٤	السابعة ١٩٨٦
حكايات حارتنا	١٩٧٥	السادسة ١٩٨٦
قلب الليل	١٩٧٥	الثالثة ١٩٨١
حضرة المحترم	١٩٧٥	الرابعة ١٩٨٣
ملحمة الخرافيش	١٩٧٧	الرابعة ١٩٨٥
الحب فوق هضبة الهرم	١٩٧٩	الرابعة ١٩٨٧
الشیطان يعظ	١٩٧٩	الرابعة ١٩٨٧
عصر الحب	١٩٨٠	الثانية ١٩٨٧
أفراح القبة	١٩٨١	الثالثة ١٩٨٧
ليالى ألف ليلة	١٩٨٢	الثالثة ١٩٨٧
رأيت فيما يرى النائم	١٩٨٢	الثالثة ١٩٨٧
الباق من الزمن ساعة	١٩٨٢	الثانية ١٩٨٥
أمام العرش (حوار بين الحكام)	١٩٨٣	الثانية ١٩٨٥
رحلة ابن فطومة	١٩٨٣	رواية
التنظيم السرى	١٩٨٤	مجموعة
العائش فى الحقيقة	١٩٨٥	رواية
يوم مقتل الزعيم	١٩٨٥	رواية
حديث الصباح والمساء	١٩٨٧	رواية
صباح الورد	١٩٨٧	مجموعة
تحت الطبع		
قشتمر		رواية
الفجر الكاذب		مجموعة

رقم الإيداع ٣٤١٨
الترقيم الدولي ١ - ٠١١٦ - ١١ - ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - البحالة



الثلث ٣٥٠ قرشا

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه